

وأعيقت الامبراطورة ايزابل وسط هذه الاستعدادات بطفل، وولدت في ٢٥ - نيسان ١٢٢٨ في أندريا بصبي ذكر منح اسم كونراد، وكانت معاناة الولادة قاسية جداً بالنسبة للامبراطورة ابنة السابعة عشرة، ولقد توفيت بعد عشرة أيام من ولادتها، تاركة كونراد وريثاً لعرشها في القدس، وهكذا انتزع اللقب من فردريك ، قبل أن يشرع بسفره نحو مملكته في القدس، وعندما أقلع أخيراً في ٢٨ حزيران، كان ادعاه القانوني الوحيد بعرش المملكة الشرقية متمثلاً بوضعه كوكيل لابنه الرضيع، وزيادة على هذا لقد أبحر على الرغم من الحظر البابوي، الذي منع تحت التهديد بالحرم الكنيسي وعدم المصالحة مع الكنيسة، إذا ما قام بالحملة الصليبية.

#### ب - الحملة الصليبية: حزيران ١٢٢٨ - أيار ١٢٢٩ .

عندما أبحر الامبراطور، وهو في لجة الحظر البابوي، من برنديزي في ١٢٢٨ ، وشرع بحملته الصليبية التي تأخرت كثيراً، كانت قوته صغيرة، تألفت من أربعين مركباً فقط، فقد كان الجزء الأعظم من جيشه قد تقدم أمامه، لكن وإن أخذنا ذلك بعين التقدير كانت الحملة الصليبية الامبراطورية أقل عظمة مما خطط له بالأصل، وبعد ابحار دام أربعة وعشرين يوماً، اجتاز فيها الأسطول الامبراطوري سواحل كورفو، وسيفالونيا، والمورة، وكريت، وصل يوم ٢١ تموز إلى ميناء ليماسول في قبرص، حيث التقى بتوماس أوف أسيرا وفيلنغر ، وبالين صاحب صيدا، وبعض من أعيان نبلاء المملكة ، وكان يحكم مملكة قبرص آنذاك الملك هنري الأول، وكان صغيراً، وقد ناب عنه جون دي إيبيلين صاحب بيروت، حيث كان يعمل وكيلاً يتولى إدارة المملكة، وكان فردريك يعدّ قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة ١١٩٧، وكان قد اعترف بالتابعة للامبراطورية، ولهذا قرر فردريك الضغط من أجل حقه

بالسيادة على الجزيرة، وقد شجعه على ذلك: عموري برلياس ومجموعة من البارونات المضادين للإيبيليين، الذين كانوا قد خرجوا لاستقبال الامبراطور قرب المورة، وقد بينوا له القيمة في الرجال، والمال، والامدادات التي سيؤمنها تملكه لقبرص لحمالاته في القارة، وكانت القضية القائمة قضية قانونية، لأنه بموجب القانون الإمبراطوري كان يحق لفردريك بحكم سيادته، توجيه الملك الصغير وريث المملكة لأنه كان تابعاً إمبراطورياً، لكن بموجب قانون قبرص كانت نيابة الملك بيد أليس أم هنري، وهي أقرب أقرباء الملك الطفل، وكانت المحكمة العليا لقبرص قد عينت فيليب دي ايبيلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس، أثناء قصور وريثها، وعندما تولى فيليب مسؤوليات حكم المملكة، قام البارونات بناء عليه بتأدية يمين الطاعة لحكمه حتى يصل هنري الى السن الشرعي، وطالما أن الملكة أليس كانت تتلقى موارد المملكة، فالحكومة مسندة إلى الإيبيليني، ولعله بسبب الخوف من الامبراطور بادعاء حق الإشراف على توجيه الملك القاصر، قام الإيبيليني في سنة ١٢٢٥ بتتويج هنري، وكان هذا عندما سرت أخبار خطط الحملة الصليبية الامبراطورية في قبرص، وتوفي فيليب دي ايبيلين في عام ١٢٢٧، وانتقلت إدارة المملكة على الفور - بموافقة من المحكمة العليا - إلى أخيه جون صاحب بيروت، وأدى النزاع فيما بين الإيبيليين وبرلياس إلى قيام حزب معارض قوي للإيبيليين، بعدما حاول برلياس تأمين وكالة الملك من خلال الملكة أليس، التي رفضت محاولتها وأحبطت من قبل المحكمة، وكان الحزب المعارض يأمل بأن الإمبراطور سوف يؤكد حقوقه، ويتزع من الإيبيليين الوكالة لنفسه.

و عندما طلب فردريك من الإيبيليني أن يسلمه الملك و حكومة المملكة، استجاب صاحب بيروت إلى المطالب الامبراطورية فيما يتعلق بالملك، معترفاً بسيادة الامبراطور على الملك، لكنه رفض الاستجابة فيما

يتعلق بالوكالة، التي استحوذ عليها بموجب سلطات المحكمة العليا، التي هو مسؤول أمامها فقط، فالملكة أليس قد كانت نائبة الملك، و لها حق التمتع بالموارد، و هو - أي الإيبيليني - له حق الحكومة فقط ، الذي منح إليه من قبل المحكمة، و هو على استعداد لتقديم حساب لمحكمة نيقوسيا حول جميع ما قام به، و قام فردريك عن عمد بتعقيد القضية، بأن طلب بالإضافة إلى ماتقدم تسليمه مدينة بيروت، بحكم أنه كان ملكاً للقدس و الإيبيليني تمتلك لها كإقطاعية من إقطاعات القدس، و من الضروري من أجل توضيح الأمور، أن نميز بعناية مسألة العلاقات اللتان قامتتا بين فردريك و الإيبيليني : فيما أن فردريك كان يمتلك السيادة على ملك قبرص، فقد كان بإمكانه أن يطلب الولاء من الإيبيليني لأنه كان من الاقطاعيين القبارصة، و هذا ما قدمه له الإيبيليني عن طواعية، لكن فردريك ادعى النيابة عن الملك هنري، التي هي بموجب القانون القبرصي كانت تعود إلى الملكة أليس، و قد أصر على الاعتراف بحقوقه كنائب، الأمر الذي رفض الإيبيليني الاعتراف به، و لقد رأى فردريك أن حكم الإيبيليني قد توقف بالضرورة عندما وصل هو، لأنه هو النائب القانوني، و طالب بالإعتراف بحقوقه، و بات من المتوجب على الإيبيليني تقديم حساب له عن السنوات التي أمضاها بالوكالة، و من جهة ثانية عدّ نفسه الوكيل الإداري للملكة أليس، التي هي النائب الشرعي، وهو مسؤول أمام المحكمة العليا التي منحته السلطات حتى بلوغ الملك السن القانونية، و بالمحصلة كان هو على استعداد لأن يسلم فردريك شخص الملك الطفل القاصر، لأنه امتلك حق السيادة عليه، لكنه رفض تقديم أي حساب إلا إلى المحكمة العليا في نيقوسيا، و كانت العلاقة الثانية بين فردريك كملك للقدس و الإيبيليني كصاحب لبيروت، و هنا أبدى الإيبيليني استعداده لتقديم الولاء لفردريك كملك للقدس، و أن يخدمه مقابل اقطاعه في بيروت الذي هو مستحوذ عليه منه، و طلب فردريك التسليم الفوري للاقطاع

حيث ادعى أنه يعود إلى الأملاك الملكية، و كان الاقطاع قد جرى منحه إلى الإيبليني من قبل الملك عموري الثاني و الملكة ايزابل، و بموجب قوانين القدس كان التابع محمياً في تملكه لإقطاعه ضد المصادرة القسرية للملك، وواضح في القوانين تمام الوضوح أن التابع يمكن أن يحرم من إقطاعه فقط بموجب قرار من المحكمة العليا للقدس، و تعلقت المسألة هنا بجميع امتيازات الحقوق التي تمتع بها ملك القدس، و كان فردريك يحاول أن يفرض امتيازات و أن يارس أموراً لم يسمع بها فيما وراء البحار، و كان الإيبليني مصراً على التمسك بحقوقه كإقطاعي حسبما هي مضمونة في شرعة المملكة، و على هذا كان الصراع أكبر منه صراعاً بين فردريك و بين صاحب بيروت، فلقد كان صراعاً أساسياً بين نظامين متعارضين: أولهما من جانب القانون الروماني و الامتيازات، و من الجانب المقابل القانون الاقطاعي مع حقوق الأفراد، و كانت قوانين الدول الصليبية قد تأسست في القرن الثاني عشر على قواعد إقطاعية صرفه، و كانت الحقوق الفردية في جميع الأحوال محمية، و لم تعرف قوانين القدس أي شيء حول الامتيازات، و لم تكن فيها مجموعات القوانين الرومانية أو مؤثراتها، فلقد كان بإمكان فردريك الثاني أن يكون صاحب صقلية بلا منازع و الامبراطور الشرعي لألمانيا، غير أنه كان في القدس ملكاً اقطاعياً، خاضعاً للقانون، و غير قادر على فعل أي شيء بدون موافقة المحكمة العليا، التي كانت مكونة من إقطاعيي المملكة، والتي امتلكت السيادة في جميع الأشياء.

ولقد روى فيليب دي نوفار أفضل تفاصيل أخبار هذا الصراع، و أعطى الإيبليني رهائن مقابل ظهوره في كل من محكمتي قبرص و القدس، و تراجع إلى نيقوسيا، و عندما لحقه فردريك إلى هناك، رفض صاحب بيروت القتال ضد الرجل الذي كان مولاه، و انسحب متراجعاً إلى ديو دامور، متخلياً بذلك عن نيقوسيا لأعدائه، ولو امتلك فردريك

المزيد من الوقت لأمكن القتال من أجل المسألة، ولوجدت حلاً كلياً في صيف ١٢٢٨، لكنه تسلم رسالة أخبرته عن العصيان الذي كان البابا يثيره في إيطاليا ضده، وكان قلقاً لإكمال صليبيته ومن ثم العودة إلى الغرب، ونتيجة لهذا أبرمت معاهدة، وبموجبها جرى إعادة الرهائن الإيلينية إلى قلاع المملكة، وهم الينيات البديية للحكم، وتم تسليمهم إلى يدي إقطاعي تابع للملك هنري كان قد جرى اختياره من قبل الامبراطور، وقد احتفظ هذا بهم باسم الملك، ووعد الإيليني بمرافقة فردريك في صليبيته، وغادر فردريك قبرص في الثالث من إيلول، بعدما أمضى ثلاثة وأربعين يوماً في قبرص، وتوجه فردريك إلى سورية، وأخذ الملك هنري معه.

وبعدما أبحر مروراً بالبترن، وبيروت، وبصيدا وبصور، وصل الامبراطور إلى عكا، حيث جرى استقباله بحماس كبير من قبل السكان، مع أن رجال الدين رفضوا منحه قبلة السلام، حتى يتصالح مع الكنيسة، وعاشت هذه الصداقة مع السكان لمدة قصيرة فقط، فبعد أيام قليلة من وصول الاسطول الامبراطوري، وصل بعض الرهبان الفرنسيين إلى عكا وهم يحملون رسائل من البابا ضد فردريك، وهي تأمر جميع المسيحيين الطيبين بالابتعاد عنه وتجنبه، بما أنه محروم كنسيا ولم يتب، وأرسل الامبراطور الكونت هنري صاحب مالطا ورئيس أساقفة باري إلى روما ليعرضاً قضيته أمام البابا غريغوري، وليسعياً لضمان السلام حتى تتمكن الحملة الصليبية من المضي دونما إعاقة، غير أنهما وجدا البابا العجوز متصلباً في رفضه في قبول الاعتذار الامبراطوري.

وفي الوقت نفسه أعاد فردريك من عكا المباحثات مع السلطان الكامل، الذي كان معسكراً في نابلس، وكان توماس أوف أسيرا، وبالين صاحب صيدا هما الرسولان الامبراطوريان، وعاد الشيخ فخر الدين رسولاً من السلطان إلى الامبراطور، وكان فردريك راغباً بشدة في إتمام

التحالف على أساس الشروط التي تقدم بها الكامل في ١٢٢٦، لكن السلطان لم تكن لديه الرغبة الآن في تقديم التنازلات الكبيرة، طالما أن المعظم كان الآن ميتاً، وقد زال الخطر من دمشق، لأنه بعد وفاة المعظم غزا السلطان المصري فلسطين واستولى لصالحه على القدس و نابلس، وبات أقل رغبة في إعطاء فردريك مدناً هي الآن في يده وليس كما كان من قبل - عندما تنازل عنهن - في أيدي منافسه، وكان قد تمكن في آب من عام ١٢٢٨ من نيل معاهدة من الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة، وأخوه أيضاً، اقتسما بموجبها ممتلكات الملك المعظم، وبذلك حرما كلياً الملك الناصر داود، وهو ابن المعظم ووريثه، وعلى هذا كان وضع الكامل قد تمتن كثيراً، وباتت حاجته للتحالف مع فردريك ضئيلة، وكان فردريك من الجانب الآخر، بحاجة كبرى إلى السلطان، لأنه مع القوة الصغيرة التي كانت تحت تصرفه، لم يكن ليأمل بالاستيلاء على أي شيء بقوة السلاح، وكان عليه أن يعتمد على طيب نوايا السلطان نحوه، وعلى إمكانية تأمين أي شيء من خلال المفاوضات في سبيل الوفاء بالشروط التي جرى عرضها من قبل، وازداد وضع فردريك ضعفاً بمعرفة السلطان بالصراع فيما بين الامبراطور والبابا، ولإنعدام الوحدة داخل المعسكر المسيحي، وأكثر من هذا لقد كتب غريغوري مباشرة إلى السلطان يطلب منه أن لا يقدم أية تنازلات إلى فردريك، لهذا كان ما تمكنت الحملة الصليبية من تحقيقه قد جاء بالدرجة الأولى محصلة للإحترام المتبادل الذي قام بين الامبراطور والسلطان، وبفضل الصداقة التي بذل فخر الدين جهوده في سبيل إقامتها، وتأسيسها فيما بين الحاكمين المتشابهين بالعقلية.

وانتقل الكامل من نابلس إلى غزة ولحقه فردريك باتجاه الجنوب، حيث زحف إلى يافا في تشرين الثاني لعام ١٢٢٨، ونتيجة لإصدار البطريك جيرولد حرماناً كنسياً ضد الامبراطور، رفض مقداً الاستبارية

والداوية الزحف تحت الراية الامبراطورية، لكنها قاما بعمل تسوية، بأن زحفا على بعد مسيرة يوم واحد من جيش فردريك وأعلنا أنها كانا لا يخدمان في جيش الامبراطور بل في جيش المسيح، وشكل الجيش الصليبي وإن كان صغيراً شيئاً من الرعب بالنسبة للملك الكامل، وصحيح أن الصليبيين كان عددهم صغيراً بالفعل، ولا يمكنهم تشكيل خطر حقيقي على مصر، لقد امتلكوا من القوة ما فيه الكفاية لأن يجعلوا السلطان غير قادر على تجاهلهم، وأيضاً غير قادر على متابعة حروبه في سورية حيث كان يتولى تقليص حجم ممتلكات الدمشقيين، وقد أمل الكامل — لبعض الوقت — بأن يعجز فردريك عن البقاء في فلسطين، وأنه سوف يرغم على العودة إلى الغرب دون أن يتمكن من إنجاز ما أراد إنجازه في إعادة الاستيلاء على القدس، وصحيح أنه قدر تقديراً صائباً رغبة الامبراطور في العودة إلى ايطاليا، هو لم يقدراً كافياً لإصرار فردريك على ان يحمل معه بعض النتائج القيمة لحملة، حتى لا يظهر بمظهر المخفق في أعين العالم المسيحي، وقد التجأ كل من فردريك وغيغوري إلى الرأي العام، وكان على فردريك العودة مع ثمار للنصر كيفما كان قد تم الحصول عليها، ونتيجة لهذا بينما سعى الكامل إلى إطالة أمد المفاوضات، تمسك فردريك بإصراره على تسليمه القدس والبلدات الفلسطينية الأخرى، وكان موقفه لبعض الوقت خطيراً، فقد أخرت العواصف الاسطول الذي كان يحمل الميرة، ولم يستطع الوصول إلى يافا لبعض الوقت الذي مضى بعد وصول الجيش، وعانى الناس من نقص الميرة والإمدادات، وأصبح الامبراطور يائساً، لكن الحظ ابتسم له أخيراً، فقد قام الملك الناصر داود — الأمير الدمشقي المخلوع — بغزو سورية بغية إعادة الاستيلاء على ممتلكات أبيه التي كان عماء يجاربان في سبيلها، وقد حوصر في دمشق من قبل الأشرف، وبات الآن هناك خطر يواجه الكامل فإما أن يتمكن الناصر داود من استرداد أراضيه، أو أن يقرر الأشرف احتلال أكثر من حصته، وصار الآن على الكامل حتى

يحافظ على مكتسباته في سورية أن يبذل غاية جهده حتى يتحرر من الانشغال بالحملة الصليبية، وذلك لكي يتدخل بشكل فعال في الحرب السورية، ونتيجة لهذا كان فخر الدين قادراً على إعداد معاهدة تسلم بموجبها فردريك أكثر مما كان يتوقعه، ويمكنه ضمانه، مما أعطاه القدرة على العودة إلى الوطن وهو جالب إليه «سلام مع مجد»، ويروى بأن الامبراطور قد قال لفخر الدين: «لولا أن أخاف من انكسار جاهي في عيون الفرنجة، ما كلفت السلطان شيئاً من ذلك»، في حين دافع الكامل عن المعاهدة بقوله: «إننا لم نسمح للفرنج إلا بكنايس وأدر خراب، والمسجد على حاله، وشعار الاسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع»، وفي الوقت الذي انتقدت فيه المعاهدة من كلا الطرفين، توفرت لدى المسلمين أرضية أفضل للشكوى والتقد.

وكانت معاهدة يافا هذه التي أبرمت أخيراً في ١٨ - شباط لعام ١٢٢٩ عبارة عن اتفاقية شخصية بين السلطان والامبراطور، وقد أعدت بشكل سري، فما من واحد من الأعيان السوريين استشير لدى إعدادها، وقد غضبوا حيال إبرامها، وقد رست تماماً واعتمدت على النوايا الطيبة لكل من السلطان والامبراطور من أجل فرضها وتطبيقها، وقد عقدت من أجل خاطر فردريك شخصياً، وليس لصالح مملكة القدس، أو الكنيسة المسيحية، فقد كانت هذه غاضبة حسبها مثلها رجال الدين، وكانت المواد الاساسية للمعاهدة كما يلي:

- ١- يسلم السلطان إلى فردريك أو نوابه مدينة القدس.
- ٢- تبقى منطقة المسجد بما في ذلك قبة الصخرة بيد المسلمين، الذين يتمتعون بالحربة في ممارسة شعائرهم هناك دون إعاقة.
- ٣- للمسلمين الحق بحرية الوصول إلى أماكن الزيارة لديهم في بيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى في ديانتهم.

- ٤- يسمح للفرنجة بالدخول إلى منطقة الحرم للصلاة، شرط إظهار الاحترام اللائق بالمسجد بيت الله.
- ٥- يمتلك المسلمون محكمتهم الخاصة التي إليها يتقاضون.
- ٦- وعد الامبراطور بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب قد تشن ضد السلطان، وأن لايساعد أحداً ضده.
- ٧- سوف يمنع الامبراطور أي واحد من رعاياه من إثارة حرب ضد السلطان، ويعيق أي إنسان قد يقترح فعل ذلك.
- ٨- تعهد الامبراطور شخصياً بفرض شروط المعاهدة، وأن يمنع أي خرق للمهدنة.
- ٩- تترك طرابلس وأنطاكية وطرطوس وقلاع : صافيتا، والمرقب والكرك ( قلاع كانت عائدة لكل من الداوية والاسبتارية) كما هي، حسبما كانت ( أي هي غير مشمولة بالمعاهدة)، وينبغي على الامبراطور أن يمنع أي من رعاياه: من سوريين وآخرين، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان.
- ١٠- ينبغي إعادة القديس جورج (اللد) والقرى القائمة بينها وبين القدس إلى الامبراطور.
- ١١- ينبغي إعادة الناصرة والقرى الواقعة بينها وبين عكا إلى الامبراطور.
- ١٢- ينبغي إعادة تبين مع أراضيها وقرائها.
- ١٣- ينبغي إعادة صيدا وأحوازها.
- ١٤- ينبغي إعادة بيت لحم والقرى التي بينها وبين القدس.
- ١٥- يسمح بإعادة بناء أسوار القدس، ويافا، وقيسارية والقرين

(قلعة فرسان التيوتون) من قبل المسيحيين (ذكر المقريري أن مدينة القدس لم تحصن).

١٦- لايسمح للمصريين ببناء أي حصن جديد، وإعادة بناء أي حصن قديم طوال أيام الهدنة.

١٧- سوف يكون هناك تبادل كامل وإعادة للأسرى، بما في ذلك الذين أسروا في حمله دمياط.

١٨- مدة الهدنة عشر سنوات، وخمسة أشهر، وأربعين يوماً.

ومع أن المعاهدة قد حققت لفرنجة سورية أكثر مما حققته أية حملة صليبية أخرى منذ الحملة الأولى، ومع أنها لاقت القبول من قبل السواد الأعظم من الجيش الصليبي، ومن شعب البلاد، كانت غير مقبولة لدى البطريرك جيرولد مع رجال الدين، وانتقدت المعاهدة بتسويغ أعظم من قبل المسلمين، الذين شعروا بأن السلطان كان مسرفاً جداً بكرمه، ورفض الناصر داود بشكل خاص القبول بأداة تصرف بموجها عمه وأعطى مدناً، شعر بأنها تعود إليه شرعاً، واستغلت هذه الحقيقة من البطريرك جيرولد، الذي ألح على رفض داود واتخذ منه حجة للمعارضة من الجانب المسيحي، كما وعارض البطريرك المعاهدة بشكل رئيسي لأنها سمحت للمسلمين بالعبادة في القدس، وجعلت الامبراطور يتعهد بعدم السماح لأي صليبي بغزو مصر، وهذه الفقرة رآها رجال الدين وعدّوها على أنها أكثر الفقرات لامسيحية.

ولم يؤثر رفض البطريرك والناصر داود لقبول المعاهدة أي شيء على الاطلاق، وذلك فيما يتعلق بفردريك والكمال، وكان الامبراطور الآن قلقاً جداً- أما والمعاهدة قد أبرمت- لكي ينهي أعماله ويعود إلى الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧- آذار، وجرى في اليوم التالي- أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع

الغرب، وبناء عليه زحف باتجاه المدينة المقدسة، التي دخلها يوم ١٧— آذار، وجرى في اليوم التالي— أي بعد مضي شهر تماماً على توقيع المعاهدة— تتويجه لنفسه بشكل مهيب ملكاً على القدس، وكان ذلك في كنيسة الضريح المقدس، ورفض عدد كبير من البارونات إتباع الامبراطور إلى القدس، وكان ذلك بناء على أوامر من البطريرك، وعادوا إلى عكا، مع أن الصليبيين من الغرب، وفرسان التيوتون وعدد كبير من البارونات المحليين قد رافقوه، وبما أن الامبراطور كان ما يزال محروماً فقد جرى احتفال التتويج بدون موافقة البابوية، مع أن رئيس أساقفة كابوالبوا Capual وبالمو وكذلك عدد كبير من رجال الدين الأدنى مرتبة كانوا بين الحضور، ووضع وقتذاك تاج القدس فوق المذبح في الكنيسة، ومن على المذبح تناوله الامبراطور نفسه، ووضع على رأسه، ثم تكلم فون سالزا باسم الامبراطور، وتوجه إلى الشعب مؤكداً له أن رغبته العظيمة هي التصالح مع البابا وإقامة سلام معه، وسوغ مواقفه بالنسبة للتهمة التي صدرت ضده.

ثم مالبث الاحتفال أن تحول إلى حزن، فبعد التتويج بأمد وجيز قام رئيس أساقفة قيسارية، بناء على أوامر من البطريرك، فوضع الكنيسة والأماكن المقدسة في المدينة تحت الحرمان، وكانت هذه بالحقيقة ضربة مؤلمة للحجاج الذين ارتحلوا إلى المدينة المقدسة، فهم قد حرموا الآن من المنافع الروحية التي توفرت هناك، لابل أكثر من هذا، لقد باتوا عرضة للعقوبة لوجودهم هناك، وبعد ما قام فردريك بكل سرعة ببعض الترتيبات الدفاعية عن المدينة المحرومة، انسحب منها، وزحف عائداً إلى يافا، ثم قام في ٢٥— آذار، أي بعد اسبوع واحد تماماً مضي على تتويجه بالعودة إلى عكا.

وأمضى الامبراطور شهر نيسان في عكا، حيث كان لديه عدداً من القضايا عليه ايجاد حل لها قبل أن يغادر البلاد، وتصدر هذه القضايا من

حيث الأهمية ما كان ضد البطريك وضد الداوية، الذين اتهمهم بأنهم حاولوا قتله بوساطة كمين نصبوه له بناء على طلب من البابا، وقد حاصر لمدة خمسة أيام البطريك والداوية في بيوتهم في عكا، حيث نصب آلات الحرب، وقاد عمليات حصار نظامية ضدهم، ورد البطريك على هذا بفرض حرمان لاهوتي على الذين تولوا مساعدة الامبراطور، ووقفوا ضده وضد الداوية، وبشر الرهبان بمضمون هذا المرسوم، وعليهم نزل غضب الامبراطور، الذي أمر بجرهم من فوق منابريهم، وضربهم في شوارع المدينة، مثل اللصوص العموميين، وقام الامبراطور بالوقت نفسه بربط الفرسان التيوتون والبيازنة به أكثر، وجعلهم متعلقين به شخصياً عن طريق عدد من مراسيم المنح الكريمة التي صدرت في عكا في نيسان عام ١٢٢٩، وباع بالوقت نفسه وكالة قبرص إلى عموري برلياس ومعه رفاقه الأربعة، وعين بالين صاحب صيدا، وغارنير الألماني وكيلين له في سورية، وقد أنهى ترتيباته بكل سرعة، ذلك أنه كان قلقاً جداً ومتعجلاً للعودة إلى إيطاليا، حيث كان الجيش البابوي تحت قيادة جون دي بريين يقوم بغزو أبوليا وكابوا، وأقلع الامبراطور يريد الوطن في الاول من أيار، على ظهر اسطول، كان الكونت هنري صاحب مالطا قد جلبه للتو من الغرب.

وتركت مغادرة فردريك لعكا الأوضاع في سورية والمشاكل فيها دونها حلول، حيث ما برح البطريك مع رجال الدين يرفضون القبول بمعاهدته مع مصر، وكان الداوية معادين للامبراطور بشكل علني، ولم تعرض قضية الايليني للمحاكمة في المحكمة العليا، وهكذا بقيت دونها حسم، وكان وكلاء فردريك في قبرص يسعون جاهدين من أجل تدمير ثروة الإيلينيين وقوتهم في الجزيرة، وكانت الحملة الصليبية قد انتهت، لكن مؤثراتها على الدول اللاتينية لما وراء البحار لم يكن الشعور بها قد بدأ تماماً.

## ج- الحرب الامبراطورية الايبلينية حتى طرد الإمبراطورين من قبرص، ١٢٢٩-١٢٣٣ .

كان الزمان الذي جاء مباشرة إثر عودة فردريك من الحملة الصليبية موائماً جداً لسعد الامبراطور ولصالح قضيته، فقد تمكن في الغرب بنجاح من طرد الجيوش البابوية من المملكة الايطالية، ومن ثم نقل الحرب إلى داخل الدول البابوية، وفي تلك الأثناء تمكن بالين صاحب صيدا، الذي كان وكيله، من إحباط محاولة قام بها بعض البداية من المسلمين للاستيلاء على القدس، وضمن القبول بمعاهدة يافا من سلطان دمشق، وجرت مصادرة ممتلكات الداوية في صقلية، وأرغموا في الشرق على التخلي عن مطالبهم نحو صيدا وصور، وكان الحزب المعادي للإمبراطور قد اتخذ وضع الهجوم بعد وقت قصير من مغادرة الامبراطور، لكن محاولته لخلع الامبراطور من عرش القدس قد أخفقت، وأعلن بارونات المحكمة العليا عن أنفسهم أنهم تابعين للملك كونراد ولفردريك والده، وتركزت المحاولة حول شخصية أليس صاحبة قبرص التي كانت ابنة ايزابل صاحبة القدس وهنري دي شامبين، فقد مثلت أمام المحكمة تطالب بعرش القدس، على أساس أنها أقرب أقرباء الملكة ايزابل المتوفاة، وقد أقرت بأن كونراد كان ملكاً شرعياً، لكنها أصرت على أنه لم يأت للمطالبة بميراثه في مدة سنة ويوم بعد تسلمه لهذا الميراث، وعلى هذا لقد فقد جميع حقوقه به، وعليه انتقل الميراث إليها، ولم ينكر البارونات بأن القوانين تتطلب وجوب قدوم كونراد إلى سورية للمطالبة بعرشه، لكنهم رفضوا القبول بادعاءات أليس، وعضواً عن ذلك بعثوا بسفارة إلى فردريك تتألف من جون بيليل Baillieu، وغيوفري لى تور، للطلب بوجوب قدوم كونراد إلى عكا في أقرب وقت ممكن، وغادرت السفارة عكا مع نهاية عام ١٢٢٩، ووصلت إلى فردريك في فوغيا Fog-gia في أيار لعام ١٢٣٠، ووعد الامبراطور السفارة بدون لبس بأنه

سوف يرسل كونراد في أقرب وقت ممكن، لكن فوق ذلك لم تحصل منه على أي شيء، وتابع في الوقت نفسه وكلاء الامبراطور حكمهم للمملكة، وعلى العموم زادت حكمتهم في إدارتهم من شعبية الحكومة الامبراطورية.

لكن إذا كان الوكلاء الامبراطوريون قد حكموا بعقلانية، ونالوا الشعبية في سورية، على عكسهم تماما كان حكم البارونات الخمسة الذين ضمنوا الوكالة في قبرص من الامبراطور، ففي مسعاهم لتأمين المبالغ الضرورية لدفعها ثمناً لوكالتهم، فرضوا ضرائب ثقيلة على البلاد كلها، وسلبوا بشكل خاص ممتلكات الإيبليين وأصدقائهم، حيث أملوا بإبعادهم نهائياً عن قبرص، وحدث في حزيران ١٢٢٩، أن جون صاحب بيروت عاد من سورية إلى قبرص، وأثار البلاد ضد الوكلاء، وحدثت معركة قرب نيقوسيا في ١٤ - تموز، هزم فيها الإيبليين مع مؤيديه برلياس ورفاقه، وأرغمهم على اللجوء إلى القلاع الشمالية: في ديودامور، وكتتارا، وسيرينا، وبعد أمد وجيز استولى الإيبليين على كتتارا وسيرينا، ثم ألقى الحصار على الوكلاء في ديودامور، ومن تموز ١٢٢٩ حتى ما بعد عيد الفصح لعام ١٢٣٠، أبقى صاحب بيروت وأولاده الوكلاء تحت الحصار هناك، وأخيراً استسلموا وتحلوا عن شخص الملك هنري وعن القلاع، وتنازلوا عن كل ادعاء لهم بالوكالة، وهذه الحرب هي التي حدثنا عنها فيليب دي نوفار بالتفصيل، وهي التي فيها تناول بالهجاء رينارد.

وفي الوقت نفسه تابع فردريك بنجاح حملاته ضد الجيوش البابوية إلى حد أن الكرسي المقدس بات جاهزاً للسلام، ووصل الصراع إلى النهاية في تموز ١٢٣٠، بسلام سان جرمانو، وهدأت المشاكل الإيطالية، وجرى استقبال فردريك ثانية في الكنيسة بمثابة « الابن العزيز في المسيح»، وذلك من قبل البابا العجوز، وألغي الحرمان الكنسي، وصدرت الاوامر

إلى بطريك القدس بسحب الحظر الذي فرضه، وأن يقبل معاهدة يافا، وفي الوقت الذي أضعف فيه هذا السحب للتأييد البابوي الحزب المضاد للامبراطور كثيراً جداً، لكنه لم يته مقاومته ولم يحطمها، وتابع البطريرك والداوية مع الإيبيليين مقاومتهم للوكلاء الامبراطوريين، وفي شباط عام ١٢٣١، كتب البابا إلى الداوية يطلب منهم الخضوع، لأن الامبراطور قد تشكى ضدهم في أنهم يقاومون أوامر وكلائه، ويثرون الحرب ضد شروط الهدنة مع مصر، وأعدّ الامبراطور في الوقت نفسه حملة لإرسالها إلى سورية، حتى تقيم حكمه هناك في البلاد بشكل راسخ، ولتتولى القضاء على العصيان، وأمر وكلاءه بمصادرة أراضي القادة : جون صاحب بيروت، وولدي أخيه صاحبي: يافا وقيسارية، وصاحب طبرية .

ووضع الجيش الذي أرسله الامبراطور إلى سورية تحت إمرة رتشارد فيلنغر، الذي كان المارشال الامبراطوري، وقد أرسل على دفعتين، وتألقت الدفعة الأولى من ثمان عشرة سفينة تحت إمرة أسقف ملفي Melfi، وقد وصلت إلى رأس غافاتا Gavata قرب ليماسول في أيلول ١٢٣١، وكان الملك هنري في كيتي Kiti (تشيتي Chiti قرب لارنكا) مع صاحب بيروت، وإليه إلى هناك جاء أسقف ملفي، وهو جون دي بيلول، الذي كان سفير المحكمة العليا إلى فردريك، وكذلك أيمنون الألماني حفيد الوكيل غارنيير الألماني، وقد طلبا باسم الامبراطور من الملك هنري أن يقوم بطرد جون دي إيبيلين من مملكته ومعه أقاربه، وعلى هذا رد الملك بلسان وليم فيزكونت بأنه لا يستطيع طرد الإيبيليني لأنه تابعه، وهو على هذا يستحق حمايته، أما فيما يتعلق بأقاربه، فإنه - أي الملك هنري - حفيد للإيبيليني، وبالتالي لا يمكنه نفي جميع الإيبيليين من مملكته، ومع هذا الرفض غادر السفيران الامبراطوريان، وبما أنها كانا غير قادرين على إرساء أسطولهما في قبرص، لوجود قوة كبيرة جداً كان قد حشدتها هناك صاحب بيروت، وعسكر بها عند ليماسول، فقد أبحرا

باتجاه بيروت، حيث استوليا على البلدة وشرعا في حصار القلعة، وعندما وصل فيلنغر مع الخمس عشرة سفينة المتبقية من الأسطول، اتجه مباشرة إلى بيروت، ووقعت القلعة الآن تحت الحصار الشديد، ثم إنه ترك شطراً من قواته تحت قيادة أخيه لوثير لمتابعة حصار قلعة بيروت، وتوجه هو إلى صور، التي استسلمت له، ثم ترك أخاه الآخر واسمه هنري، مسؤولاً عن القيادة هناك، ثم تابع زحفه إلى عكا، حيث تولى جمع المحكمة العليا، وقدم مراسيم من الامبراطور تعينه بموجبها وكيلاً على جميع مملكة القدس .

وتم قبول مراسيم اعتماد فيلنغر وتعيينه من قبل بارونات المحكمة العليا من دون سؤال، وبدأ المارشال حكمه في القدس بالالتفات نحو موضوع استسلام بيروت، وكانت هذه حركة سيئة الفأل، لأن الاستيلاء على بيروت كان معناه إلغاء لأحكام القانون الأكثر رعاية، أي قانون القدس حيث قضى أن لا يعد إقطاع التابع غير شرعي إلا بموجب قرار المحكمة العليا، ولا يجوز لإرادة سيد واحد إعلان اتخاذ مثل هذا الإجراء، وعندما بات واضحاً للبارونات أن فيلنغر ليست لديه نية في عرض القضية عليهم، أدركوا على الفور مدى المخاطر على حرياتهم التي سوف يمثلها حكم الوكيل، وكان بالين صاحب صيدا، وهو الوكيل السالف، وقائد الحزب الامبراطوري في سورية، وهو المتحدث باسم البارونات في الطلب من المارشال إخضاع القضية لقرار المحكمة، والالتزام بقوانين البلاد، وطلب فيلنغر إعطاءه الوقت ليتشاور مع القادة الآخرين من حزبه الذين كانوا في بيروت، وعاد إلى الحصار، وأرسلت إليه وفادة إلى هناك، وذلك حسبما طلب، وذلك حتى يسلم جوابه على مطالب البارونات، لكن المارشال رفض التخلي عن أي مطلب، مدعياً أنه كان يطيع أوامر الامبراطور، واقترح أنهم إذا أرادوا عرض قضيتهم واستئنافها يتوجب عليهم إرسال ممثلين عنهم إلى الامبراطور نفسه، وهو

بلطفه لاشك سوف يعطيهم العدل، ومن أجل حمل هذه الدعوى ذهب بالين صاحب صيدا، ويودس دي مونتبليارد، وغارنيير الألماني في شتاء عام ١٢٣١ إلى إيطاليا حيث كانوا جميعاً حضوراً في كانون الأول يشهدون إصدار فردريك لمرسوم في رافينا .

وكان جون دي إيبيلين في الوقت نفسه يحشد القوات للتفريج عن القلعة المحاصرة، وضمهان عون ملك قبرص، وقد بدل هذا سمة الحرب إلى حد ما، لأن دخول مملكة قبرص غير ما كان ثورة بارونات في صراع شبه محلي، وقام بارونات عكا وسكانها، وقد تحرروا من التأثير المعيق لكل من بالين ويودس، ونظموا أنفسهم داخل «كيمونة متعاهدة» وقد منحوا مقدميتها لجون دي إيبيلين، وعهدوا بأنفسهم بالوقوف إلى جانبه، وفي كانون ثاني ١٢٣١، اجتمع جيش الإيبيليني مع جيش القبارصة في فياغوستا، وعبروا في الربيع التالي إلى سورية للتفريج عن بيروت، ونزلت القوات في ميناء القسطلان قرب في طرابلس ومن ثم زحفت باتجاه الجنوب، وتحلى برلياس وأعوانه عن الجانب الامبراطوري، وبادروا مسرعين لتقوية القوات التي كانت في بيروت وكانت تتولى حصار القلعة، وزحف الإيبيليني والملك هنري على بيروت، واتخذوا مكاناً لها خارج المدينة، حيث أرسلوا من هناك المساعدة إلى الذين كانوا في داخل القلعة، وعندما بات الإيبيليني قانعاً بأن القلعة تلقت ما يكفيها من نجدات، وليس هناك من خطر مباشر عليها يهددها بالسقوط، قام بتقسيم قواته إلى قسمين، فأرسل قسماً تحت قيادة ابنه الأكبر بالين إلى طرابلس في محاولة مخففة لكسب أمير طرابلس - أنطاكية إلى جانبهم، بينما قاد هو نفسه المتبقي من الجيش وذهب إلى عكا، وتلقى هناك في نيسان ١٢٣١ قسم «الكومونة»، واستولى على الأسطول الامبراطوري الذي كان راسياً في الميناء، واستهدف فيلنغر في الوقت نفسه إحداث البلبلة بإرسال برلياس وبعضاً من رجاله إلى قبرص، حيث عاثوا فساداً في

البلاد التي تركها الإيبليني بدون حماية، واستولوا على قلاع الجزيرة، و فقط قلعتا: ديودامور وبوفافيتو Buffavento صمدتا ضدهم، ولكي يقوم بعمل انتقامي خطط الإيبليني لمهاجمة القاعدة الإمبراطورية في صور، وهكذا اضطر فيلنغر مرغماً لسحب قواته من حصار بيروت وذلك بغية تحصين المدينة، وزحف القبارصة شمالاً من عكا حتى قلعة إيمبرت، حيث حدث بعض التأخير سببه بطريك أنطاكية، الذي اجتذب الإيبليني للعودة إلى عكا، مع وعود بالمصالحة حيث ادعى بأنه يمتلك السلطة لتأمين ذلك وبحثه، وترك القبارصة معسكرهم نهياً للفوضى، وفوجئوا وهم على حين غرة حينما تعرضوا ليلة ٣ - ٤ مايس إلى هجوم مفاجيء جاء من صور، وهرب القبارصة بشكل سيء جداً، ونجا الملك هنري بعدما أصيب بالرعب، وتشتت معظم الفرسان في المنطقة المحيطة، وتشجع فيلنغر بهذا النصر والنجاح في المعركة، وبعث على الفور بقواته الرئيسية إلى قبرص لانجاز احتلال الجزيرة بالكامل .

وعندما سمع الإيبليني بالمعركة المأساوية، بادر بالتوجه إلى قلعة إيمبرت، حيث تولى جمع قواته الممزقة، وقام «بتراجع استراتيجي» إلى عكا، وأبرم هناك اتفاقاً مع الجنويين الذين زودوه ورجاله بالسفن، كما حصل القبارصة على مزيد من الإمدادات، فسلح رجاله للقيام بهجوم معاكس على قبرص، وعبر إلى هناك إلى فيماغوستا، وكان ذلك في نهاية مايس، واستولى على فيماغوستا على حين غرة، بوساطة هجوم مفاجيء، ثم سارع القبارصة بالزحف نحو نيقوسيا بحثاً عن الأعداء، الذين كانوا مشغولين بحصار ديودامور، وانتقم هناك أغريدية قبرص لأنفسهم وهزيمة قلعة إيمبرت، وأنزلوا هزيمة ساحقة برجال الحزب الإمبراطوري وأرغموهم على الدخول إلى قلعة سيرينا، واحتاج إعادة احتلال الجزيرة من الإيبليني عدة أيام فقط، واستقبله السكان القبارصة مع رجاله استقبال المحررين، مع أن رجال الحزب الإمبراطوري امتلكوا بعض

المتعاطفين في الجزيرة، وترك فيلنغر فيليب شنارت Chenart وولتر دي أكوفيفا Acquaviva مسؤولين عن القيادة في سيرينا التي كانت تحت الحصار الشديد من قبل القبارصة، وتوجه ينشد المساعدة في أرمينيا، وأنطاكية وطرابلس، ولم ينجح فيلنغر في ضمان النجدة، وخشي من أن تستهلك الحامية الكبيرة في سيرينا المؤن الموجودة في المدينة مما يسبب سقوطها السريع، لهذا انسحب ومعه برلياس، وصاحب بيسان، وصاحب جبلة، وبعدهما توقف في صور ليتفقد حاميته هناك، ذهب إلى أبوليا ليطلب العون من الامبراطور، وفي الوقت نفسه شدد القبارصة الحصار على سيرينا، التي قطعت الأمل من وصول أية نجدة، فاستسلمت وفق شروط مشرفة في ربيع سنة ١٢٣٣، ويشكل هذا التفريغ عن بيروت وإعادة احتلال قبرص الحلقات الأساسية الثانية من الحوادث التي جاءت في تاريخ فيليب دي نوفار.

وفي الوقت الذي كان فيه فيلنغر يسعى بدون نجاح كبير، لضمان السيطرة الإمبراطورية على سورية بقوة السلاح وكذلك على قبرص، كان البابا يسعى لأن يزيل واحداً من أسباب التمزق على الأقل، ولم يتوقف، في الوقت نفسه، البطريك جيرولد الذي كان بطريك القدس، عن معارضة مطامح الامبراطور، ومع أنه لم يرقم بأي عمل معلن في مقاومة وكيل الامبراطور، لقد قدم المساعدة المعنوية للحزب الإيبيليني، واحتج فردريك بشكل جدي على هذا، وقام غريغوري الذي كان ما يزال راغباً بشدة في الحفاظ على الصلح والسلام مع الامبراطور، بالكتابة إلى جيرولد يطلب منه تقديم الطاعة إلى الامبراطور التي هي واجبه، وأن يتوقف عن مساعدة الذين تمردوا عليه، لكن البطريك لم يستجب تمام الاستجابة، وهكذا لم يتوصل الامبراطور إلى الشعور بالرضى، وبناء عليه كتب البابا ثانية في تموز إلى البطريك جيرولد يأمره بالقدوم على الفور إلى روما، جالباً معه من يمثل كل من الداوية

والاستراتيجية، حتى يمكنهم إيجاد حل للقضايا التي تثير الاضطراب في القدس، وعندما بدا جيرولد متردداً بشأن الذهاب، كتب غريغوري إليه من جديد في ٢٦ - تموز، حيث انتزع منه وظيفته كنائب للبابا ما لم يقدم إلى روما في العصور المقبل، وأضفي المنصب الشرعي في سورية على ألبرت بطريك أنطاكية الذي كان منحازاً لفرديريك، وقد وجهت إليه التعليمات بالتشاور مع مقدمي منظمات الفرسان في سبيل استعادة السلام، وإعادة العصاة إلى حظيرة الطاعة .

وصحيح أن ألبرت كان من قبل يسعى في سبيل إعادة السلام قبل معركة قصر إيمبرت، بدا الآن غير قادر على تأمين أي حل لقضية الساعة آنذاك، وهكذا باشر فرديريك بنفسه العمل في سبيل الحل، فلقد اعتقد أن بإمكانه نيل رضا بارونات سورية بتقديمه لبعض التنازلات لهم فيما يتعلق بقضية الوكيل، وقد بعث برسائل على يد أسقف صيدا، مخولاً تعيين وكيل جديد في عكا، ورشح لهذا المنصب واحداً اسمه فيليب دي مو غاستل **Maugastel** ، وكان صديقاً قريب الصلة من فيلنغر الذي كان مرفوضاً كلياً لدى معظم البارونات، ومع أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد آثرا هذا الاقتراح، وسعيا في سبيل تأمين قبول فعلي من قبل المحكمة العليا في عكا، لقد كانت المعارضة قوية جداً، وقد قادها اللورد الشاب لقيسارية، مع مؤيدي الإيلينيين، وبدأ شعب عكا بالشغب، مما عطل اجتماع المحكمة وجعل أسقف صيدا مع إثنين من الوكلاء السالفين يفرون طلباً للسلامة، وقوبلت محاولة الامبراطور بالتصالح برفض حاد، ونال حزب الإيلينيين نصراً نوعياً، إلى حد أن المحكمة العليا قد أعلنت أن بالين صاحب صيدا ويودس دي مونتبليارد هما الوكيلين الصحيحين للملك كونراد، وكانت النظرية التي رست وراء هذا الاجراء هي أنها قد انتخبا من قبل المحكمة إثر وفاة الملكة إيزابل، وزيادة على هذا قد جرى تعيينهما من قبل فرديريك شخصياً في المحكمة

العليا، وأن الذي إتخذ إجراءً في المحكمة يمكن نقضه هناك فقط، ثم إن التعيين بوساطة الرسائل غير مقبول، وسيبقى التعيين القديم قائماً حتى يأتي كونراد شخصياً، ويعين وكلاء جدد، وكان هذا الإجراء عظيم القيمة بالنسبة للإيلينيين ذلك أنه فصل بالين ويودس عن فيلنغر وحزب الامبراطور في صور، وربط مصالحهما جزئياً مع ثوار القبارصة ، وترسخ وضع جون دي إيلين في منصبه مقدماً لـ «كومونة» عكا.

ومع نهاية سنة ١٢٣٣ كان وضع أعوان الحزب الامبراطوري في سورية سيئاً جداً، وجاء هذا محصلة لطرد قواتهم طرداً تاماً من قبرص، ولأن عكا أعلنت الثورة وانتظمت داخل «كومونة» ثورية، وبسبب أن المعتدلين الذين أيدوا بالأصل الجانب الامبراطوري قد باتوا غرباء عن الحامية الامبراطورية وخضعوا لحزب الثوار، وكذلك بسبب رفض التسوية التي عرضها الامبراطور، يضاف إلى ذلك النقص المتزايد في الموارد المادية، وحافظت حامية صور على إخلاصها للامبراطور، وبقي ولايته يحكمون في القدس وفي عسقلان، لكن مع هذا لئن لم تكن القوات الامبراطورية قد طردت نهائياً من سورية، لقد كان من الضروري إقامة سلام ما في الحال.

#### د - الصراع مع صور، ١٢٣٤ - ١٢٤٣

ومع أن آفاق المستقبل للامبراطورين كانت في أدنى حدودها مع بداية سنة ١٢٣٤، لم يكن كل شيء قد ضاع إذا كان أمكن إقامة سلام دائم، وعمل ألبرت بطريك أنطاكية بنشاط ومعه هيرمان فون سالزا، الذي أعيد إلى سورية لمساعدة النائب البابوي، في تأمين معاهدة سلام مقبولة من الحزب المعتدل، الذي بقي مخلصاً للملك كونراد لكنه معادٍ لفيلنغر، وقد ضم هذا الحزب أكثرية بارونات المحكمة العليا، ونتيجة لذلك تم في أوائل سنة ١٢٣٤ إقامة سلام مبدئي بين يودس دي مونتبليارد والبارونات وسكان عكا من جانب، وفون سالزا والنائب البابوي من الجانب الآخر، وقد أرسل مشروع هذا السلام إلى البابا وإلى

الامبراطور للموافقة عليه، ووافق غريغوري في ٢٢ - آذار - لعام ١٢٣٤، وفي آب التالي بعث فردريك مع البابا رئيس الأساقفة تيري صاحب رافينا بمثابة نائب خاص ليتولى إبرام الاتفاق في سورية، وأرسل البابا في الوقت نفسه رسالة إلى جون دي إيبيلين يأمره فيها بإيقاف عصيانه ضد الامبراطور، وقد طلب منه إقامة سلام على الفور، لكن الإيبيليني ما كان ليهزم بمجرد أمر بابوي، ونجد في هذا المجال وفي مجالات أخرى تشابهاً مدهشاً فيما بين الإيبيليني والقديس لويس صاحب فرنسا، ففي الوقت الذي كانا فيه متدينين شخصياً بعمق، لم يسمح أي منهما للكنيسة بأن تملي عليه ما هو مضاد لما أملاه عليه ضميره وحسن تدبره .

ونتيجة لهذا مرت السنة وانتهت دون قبول الحزب الثائر للسلام، وفي تموز عام ١٢٣٥ كتب البابا غريغوري ثانية الى الإيبيليني طالباً منه الخضوع، وقال البابا بأن الإيبيليني كان يضلل الناس في عكا ويعددهم عن خضوعهم الحقيقي للامبراطور، وأنه كان يخطط لخيانة أعظم بالهجوم على صور، وهذا ما ينبغي له عدم القيام به بل يتوجب عليه الخضوع للامبراطور، وأن يقيم سلاماً يحترم حقوق فردريك، وفي الوقت نفسه أرسلت رسائل إلى عكا تأمرهم بعدم مسaire الإيبيليني في خيانتته، وإلى الداوية تطلب منهم مساعدة فيلنغر ضد الإيبيليني والثوار الذين كانوا يخططون لمهاجمة صور، هذا ولم يكن غريغوري راغباً في اتخاذ إجراءات قاسية جداً ضد عكا، وعندما وضع رئيس الأساقفة تيري المدينة تحت الحرمان الكنسي في محاولة منه لفرض الطاعة، ألغى البابا الحرمان، على أساس أن أهالي عكا كانوا محاطين بعدد من العقائد الأصولية، وهكذا من الممكن خسارتهم خسارة أبدية بالنسبة للكنيسة الرومانية في حالة فصلهم وإبعادهم عن جماعتهم بهذه الوسيلة، ومعنى هذا أن المسيحيين اللاتين فيما وراء البحار قد يجدون ولاءً جديداً في إحدى العقائد الأكثر لطفاً، وشرقية أقل مركزية، غير مثيرة دوماً لقسوة البابا نحو أخطاء

الكاثوليك السوريين، ووضع غريغوري بالوقت نفسه عدداً من الحلول، فكر بأنها ستكون موائمة كقاعدة لسلام دائم : وبموجب ذلك كان سيعترف بكل من فردريك وكونراد على أنهما الحاكمين الشرعيين للقدس، وبالتالي سيتملكان جميع السلطات التي امتلكاها قبل بداية الحرب، بما في ذلك حق تعيين الموظفين الرسميين، والإشراف على القلاع، وفرض الضرائب، وغير ذلك، وقد توجب عليهما إطاعة القوانين والعادات القديمة للمملكة، كما توجب حل «كومونة» عكا، وتهديم برج ناقوسها، وإلغاء مجالسها ومجامعها التي انتخبت بعد العصيان وحلها، كما ينبغي إعادة فيلنغر إلى وظيفته كوكيل حتى بداية أول آذار المقبل، ففي ذلك الوقت ينبغي تعيين وكيل جديد، وسبب ذلك أن فيلنغر قد تعرض للتشكيك به بشكل غير عادل من قبل أهل عكا، وينبغي في الوقت نفسه إبرام إتفاق سلام مع الملك هنري ملك قبرص، وتكفل البابا بتأمين أخذ قبرص بالشروط المقترحة والموافقة عليها، وقبول هذا البرنامج بشيء من المعارضة من قبل ممثلي الامبراطور، أي بيرو ديلا فيجنا والأسقف المنتخب لباتي Patte ، لكن غريغوري تابع العمل حول محاولة السلام متخذاً هذا البرنامج بمثابة قاعدة، وقامت المحكمة العليا في عكا، بناء على اقتراح فون سالزا، بإرسال رسولين هما هنري صاحب الناصرة، وفيليب دي تروي، وكانا كلاهما من فرسان عكا، إلى البابوية، مع تعليمات بعقد معاهدة، وفي شباط ١٢٣٦، كان البابا قادراً على أن يكتب إلى فردريك ، بأن السلام قد تأسس على الخطوط العامة لاقتراحاته، وأدخلت بعض التعديلات الطفيفة على الخطة الأصيلية، التي قضت ببقاء فيلنغر في وظيفته كوكيل حتى الأول من أيلول، لكن في تلك الآونة نفسها يتوجب تعيين واحد من الأتباع السوريين للامبراطور، كان قد اختاره يودس دي مونتبليارد، ليقوم بواجبات وأعمال الوكيل حتى انقضاء مدة تعيين فيلنغر، وينبغي أن يقوم فيلنغر في أيلول بالتخلي عن الوكالة ومن ثم إسنادها إلى بوهموند صاحب أنطاكية،

الذي سوف يتولى جميع الحقوق الملكية باستثناء الإشراف على قلعة صور، التي توجب وضعها تحت حراسة فرسان التيوتون، وإذا حدث ورفض بوهيموند هذا الشرف، ينبغي منحه إلى مونتبليارد، وأيضاً إذا ما رفض هذا، ينبغي تعيين واحد من الأتباع الإقطاعيين، وسوف يتم العفو تماماً عن جميع الثوار ومساحتهم، باستثناء الإيلينيين : جون صاحب بيروت، وأولاده، وأولاد أخيه وهما: جون صاحب يافا، وجون صاحب قيسارية، فهؤلاء كانوا سوف يمنحون العفو والمساحة داخل مملكة القدس، لكن بدون ضمان سلامتهم في مكان آخر، وإذا ما رفعت أية دعاوى ضدهم فالمتوجب معالجتها في المحكمة العليا للقدس، لكن البابا كان قد تصرف من دون استشارة البارونات السوريين، وهكذا عندما حملت هذه الشروط المتعلقة بالسلام إلى المحكمة العليا في عكا بوساطة الرسولين اللذين أرسلنا لمناقشة المعاهدة، شعر بارونات المحكمة بالغضب الشديد، حتى كادوا أن يبطشوا بالرسولين التيسيين، اللذين اتهموها بالخيانة، وأنها تصرفا على عكس ما لديهما من تعليمات، ورفضت المعاهدة رفضاً كلياً، ووافقت محكمة عكا على إرسال سفير عام مشترك مع ملك قبرص إلى البابا، ليشرح له أسباب معارضتهم للسلام، ووقع الاختيار على الفارس غيوفري لى تور للقيام بهذه المهمة الدقيقة، وقد وصل إلى جنوى في ربيع ١٢٣٧، وقد وجد البابا في فايتربو Viterbo حيث قدم إليه الرسائل المرسلة من ملك قبرص ومن المحكمة العليا في عكا وهي التي كان يحملها، ولقد وجد البابا راغباً تمام الرغبة في استقباله والإصغاء إلى شكاويهم، وكان سبب ذلك أن المشاكل كانت تفجرت من جديد بين البابا والامبراطور، ولم يعد غريغوري مهتماً بشأن مصالحة فردريك وتقوية وضعه، وبالنتيجة حرر غريغوري بكل سرور البارونات المحتجين من المعاهدة، ووعدهم بدعم الكنيسة في الدفاع عن حرياتهم .

وحدث في أثناء سير هذه المباحثات أن فقد البارونات قائدهم الذي

كان قد تولى قيادتهم بحكمة في أثناء معارضتهم للإمبراطور ووكيله، فقد مات جون دي إيبيلين صاحب بيروت العجوز في عام ١٢٣٦، وبدا أن روح الحزب الذي أسسه قد ماتت إلى حد كبير بموته، وفي الغرب كان فردريك مهتماً اهتماماً كبيراً في أن يحاول جاداً استرداد سلطاته في سورية، وقد رضي خلفاء صاحب بيروت بالحفاظ على هدنة مع الوكيل الامبراطوري في صور من سنة ١٢٣٧ حتى سنة ١٢٤١، وترك إخفاق خطة السلام البابوية بالطبع المسائل تماماً كما كانت قبل اقتراح المخطط، وتابع فيلنغر حكمه في صور بوصفه الوكيل الامبراطوري، وبالإضافة إلى هذا، حكم يودس دي مونتبليارد - على كل حال - في عكا بمثابة وكيل لكونراد، وذلك بتأييد المحكمة العليا، وما من واحد من الوكيلين اعترف بالآخر، وادعى كل واحد منهما بأنه الوكيل الحقيقي لكونراد، فقد عمل يودس تحت سلطان تعيين قديم جاء من المحكمة العليا، وعمل فيلنغر في الوقت نفسه في ظل شرعية تعيينه من فردريك، الذي كان هو نفسه الوكيل لكونراد، وبما أن دي مونتبليارد لم يحاول اتخاذ أي إجراء ضد الإيبيلينين، تم قبول حكومة عكا من قبل البارونات الثوار .

وكانت الحوادث الأعظم في تاريخ سورية في هذه الآونة هي التي تعلقت بصليبيتي كل من ثيبوت أوف شامبين، ورتشارد أوف كورنول، وطلب فردريك من الصليبيين تأجيل هجومهم حتى انتهاء موعد هدنته مع مصر، وعرض أن يتولى قيادتهم بنفسه إذا ما قاموا بانتظاره، واعترض البابا على التأخير المقترح، وغادر الصليبيون بدون تأييد الامبراطور، مع أنه عرض بكرم تزويدهم بكميات كبيرة من الميرة والأطعمة، وكانت دمشق ومصر مرة جديدة تتحاربان، وفلسطين تعاني من ثم من الصراع بين القوتين الأعظم، وجرى احتلال القدس لوقت قصير من قبل المسلمين، وأرغمت الحامية الصليبية على الفرار، وكان الداوية يتباحثون مع دمشق من أجل التحالف، والإستراتيجية مع مصر، وقرر الصليبيون

تحت إمرة ثيبوت الهجوم على مصر، وزحفوا جنوباً حتى تنزل بهم هزيمة ساحقة على أيدي المصريين قرب غزة في تشرين الثاني لعام ١٢٣٩ ، وحدث إثر هذا، أنه تحت ضغط كل من الداوية والاسبتارية قبل الصليبيون المضطربة أوضاعهم بتحالف الداوية مع دمشق، وتحالف الاسبتارية مع مصر، وعندما وصل رتشارد أوف كورنول، أعلن عن حياده وتابع زحفه حتى يتولى تحصين يافا وعسقلان، المدينتان اللتان حولهما إلى حكم وولتر بنينباي Pennepie، وكان والي فردريك على القدس، ثم إنه جدد المعاهدة مع مصر وانسحب، وكانت هذه الصليبية عملياً بلا نتائج، مع أن الكونت رتشارد الذي كان صديقاً قريباً من الامبراطور، زاد من تحسين السمعة الامبراطورية ومتن وضعها في المشرق، وتابع فردريك في الوقت نفسه إرسال الامدادات والمساعدات إلى فيلنغر في صور، وذلك بغية المحافظة على سلطته هناك، وتم في سنة ١٢٤١، تأمين إعراف بالطاعة من قبل : بالين دي إيبيلين صاحب بيروت، وفيليب دي مونتفورت صاحب تبينين، وجون دي إيبيلين صاحب أرسوف، وغيوفري دي ايسترين Estrainge صاحب حيفا، وكان هؤلاء قادة الحزب الإيبيليني القديم، وقد جاء خضوعهم من خلال وساطة الكونت رتشارد، وقد وافق هؤلاء على الخضوع لحكم فردريك إذا وافق هذا الامبراطور على تعيين الايرل سيمون دي مونتفورت أوف ليستر وكياً له في المملكة حتى يصل كونراد إلى السن، ومن ثم يقدم لتسلم مملكته، وكان من المفيد توقع ماكان يمكن أن يكون التأثير على تاريخ كل من انكلترا والقدس لو قام الامبراطور بهذا التعيين .

وجاء العمل التالي في الصراع بين الامبراطور والبارونات متمركزاً حول محاولة فيلنغر المخففة في الحصول على السيطرة على عكا، الأمر الذي دفع بالإيبيلينين بالشروع بأعمال انتقامية ضد صور، وشجعت خطتهم من قبل مارسيليو جورجيو Marsiglio georgio ، الذي كان الوكيل

البندقي الجديد التعيين، الذي كان متشوقاً لاسترداد بعض الممتلكات المحددة التي عادت لبني قومه في صور، والتي صودرت هناك من قبل الوكيل الامبراطوري، وكان بالين صاحب بيروت وفيليب دي مونتفورت قد وضعوا خططها للزحف ضد صور، مما يعني تجديد العصيان ضد الامبراطور، عندما اقترح عليهما فيليب دي نوفار خطته، التي يمكنها بموجبها الحصول بشكل قانوني على صور وبدون إعلان العصيان على حاكمها القانوني، فقد بين أنه في ٢٥ نيسان ١٢٤٣ يكون الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية، وبذلك تنتهي وكالة فردريك عن ابنه بشكل آلي، ومع انتهاء وكالة فردريك تنتهي بدهة سلطة فيلنغر، ونتيجة لهذا إذا ما انتظر البارونات حتى ما بعد ٢٥ - نيسان، فإن فيلنغر يصبح بدون وضع شرعي في صور، ويمكن وقتها للبارونات طرده بشكل شرعي كامل وبدون ضرر، وبدأت هذه النصيحة جيدة بالنسبة لقادة الحزب وقد قبلوها جميعاً، ولكي يكون وضعهم أكثر ضماناً جلبت أليس القبرصية، التي طالبت بالعرش في سنة ١٢٢٩ بحكم كونها أقرب الورثاء الموجودين في البلاد وقد أحضرت ثانية هذه المرة واقترحت لتكون وكيلة، وجاءت إدعاءاتها هذه المرة ليس للمطالبة بالعرش نفسه بل بالوكالة حتى يقدم كونراد شخصياً، ويستحوذ مباشرة على مملكته، وتولى فيليب دي نوفار عرض مطالبتها على المحكمة العليا، وقد جرى قبول هذه المطالب، وكان أول عمل قامت به الوكيلة الطلب بأن يجري استسلام مدينة صور وقلعتها إليها، المطلب الذي رفض بالطبع من قبل الحامية العسكرية الامبراطورية التي كانت هناك تحت إمرة لوثير فيلنغر آنذاك لغياب أخيه رتشارد الذي كان قد أبحر إلى الغرب للتشاور مع الامبراطور، وقام بعض سكان مدينة صور بإجراء مفاوضات سرية من أجل تسليم المدينة، وإثر هذا زحفت قوات بارونية ضدها، واستولت عليها بالقوة، وتراجع لوثير فيلنغر والحامية إلى القلعة، وحوصروا هناك من قبل الإيبيلينيين المنتصرين ومعهم أنصارهم، وجاء الآن دور رتشارد

فيلنغر، فهو لم يعرف أخبار الحوادث التي وقعت ، وأبحر إلى ميناء صور دونما انتباه، وهنالك ألقى القبض عليه من قبل أعضاء حزب البارونات ، ولم يستطع البارونات تأمين استسلام القلعة مقابل حياة المارشال، لكن مع هذانجح فيليب دي نوفار بضمان استسلام القلعة وإطلاق سراح الأسرى، ومع سقوط صور حقق حزب البارونات انتصاراً كاملاً في شمال فلسطين، وبذلك بات الحكم الامبراطوري منتهياً بالفعل .

### هـ - خاتمة ١٢٤٣ - ١٢٤٧ .

وأهى فيليب دي نوفار تاريخه مع سقوط صور، ذلك أنه مع إزاحة الحامية العسكرية الامبراطورية من تلك المدينة، وصل الصراع الامبراطوري - الإيليني إلى نهايته، واستمرت الحاميات العسكرية الامبراطورية بالاستيلاء، على القدس وعلى عسقلان في الجنوب لمدة عام آخر، ففي عام ١٢٤٤ جرى الاستيلاء على القدس من قبل القوات الخوارزمية التركية، وتولى توماس أسيرا، الوكيل الامبراطوري الجديد، الذي بعث به فردريك في عام ١٢٤٢ ليحل محل فيلنغر، إعطاء عسقلان إلى الاستبارية ليتولوا حراستها، وجرى استدعاء رتشارد فيلنغر إلى إيطاليا على الفور إثر سقوط صور، وتعرض هناك للإهانة والسجن بسبب إخفاقه، ونجا أخوه لوثير من الانتقام الامبراطوري بالفرار إلى أنطاكية في عام ١٢٤٧ ، وحلل البابا انوسنت الرابعه الملك هنري ملك قبرص من يمينه إلى الامبراطور ووضع مع مملكته تحت حماية الكرسي المقدس، كما لم يتمكن أسيرا ، الذي كان الوكيل الجديد من المحافظة على نفسه في سورية لمدة طويلة، وهرب أيضاً في عام ١٢٤٨ إلى أنطاكية - طرابلس، وقد طلب البابا طرده من هناك، واستمرت أليس بالحكم على أنها صاحبة القدس وذلك حتى موتها في سنة ١٢٤٦ ، ووقتها خلفها ابنها هنري الأول صاحب قبرص، لكنه لم يتمكن من نيل اللقب الملكي في القدس، لأن الملك كونراد كان ما يزال هو الملك الشرعي، وكان الملك

القبرصي هو سيد القدس فقط حتى يأتي الملك كونراد، ويحصل على عرشه ومملكته، والذي حدث أنه فقط مع زوال حكم أسرة هوهنزتوفن إثر وفاة كونرادين في سنة ١٢٦٨، وقتها استطاع هيوغ الثالث ملك قبرص أن يضيف إلى لقبه، وهو ملك قبرص، لقب ملك القدس، عاداً نفسه «الملك اللاتيني الثاني عشر للقدس، وملك قبرص» .

وكان تاريخ مملكة القدس من عام ١٢٤٧، عند الانتهاء الفعلي الكامل للحكم الامبراطوري، وإلى فقدان المملكة لصالح المصريين، تاريخاً عاصفاً بما فيه الكفاية، فقد وقف الداوية ضد الاستبارية، وقاتل البنادقة الجنويين، وادعى شارل دي أنجو حقه بالعرش وذلك ضد دعاوى بيت لوزغنان، وتحارب المصريون والمغول من أجل الاستحواذ على سورية، ولقد تورطت الدول اللاتينية في صراعهم هذا، ووسط هذه الفوضى والاضطراب الشديد تفككت أوصال المملكة ببطء، وسقطت مدينة تلو الأخرى في أيدي المسلمين، و فقط في الأيام اليائسة الأخيرة في عكا سنة ١٢٩١، نسي الفرقاء داخل المملكة صراعاتهم وعداوتهم المتبادلة وكراهيتهم لبعضهم بعضاً، واتحدوا، وعبثاً حاولوا ببطولة إنقاذ المتبقي من المملكة، ولكن جاء متأخراً جداً.

هذا من جانب ومن جانب آخر لئن كانت المملكة التي كان الإيلينيون مع حلفاتهم قد قاتلوا في سبيلها بكل عناد في ثلاثينات وأربعينات القرن الثالث عشر قد زالت قبل نهاية القرن، فإن المؤسسات الدستورية التي قاتلوا من أجل الحفاظ عليها قد استمرت بالبقاء في قبرص لمدة قرنين إضافيين، وظلت حقوق الأفراد والحد من سلطات التاج حجر الأساس في المؤسسات السلطوية في قبرص طيلة استمرار حكم أسرة لوزغنان، زد على هذا توجب على البارونات الفلسطينيين الرضى بالأسى لدى معرفتهم بمصير عدوهم القديم، حيث كان هذا المصير أسوأ بكثير من مصيرهم، فقد أنهى فردريك حياته وسط مشاكل

الحرب الأهلية وتحت الحرمان البابوي، أما فخار مملكته في صقلية فقد جرى الاستيلاء عليها من قبل الفرنسي شارل دي أنجو، وغدت الامبراطورية الألمانية فريسة للمتنازعين، وليست أفضل حالاً من الذين إنهاروا في القدس، وتهاوت الواجهة الجبارة لأسرة هوهنز توفن وسقطت حتى قبل سقوط المملكة الشرقية الصغيرة التي كانت قائمة على سواحل البحر المتوسط .

وهكذا كانت الخاتمة خاتمة محزنة، ولعل القارىء يشعر في هذه الأيام بالسرور لأن السيد فيليب دي نوفار لم يعيش ليرى الأوقات الشريرة التي هوت فيها البلاد التي عاش فيها، فقد انتهى تاريخه مع إشارة لنصر، وكما هي الحالة في الرومانسيات الحقيقية ينال جميع الأبطال الجوائز، لكن الأشرار يتعرضون للمذلة والعقوبة، فلقد كتب فيليب تاريخ حرب رائعة فيها انتصارات، كما تحدث عن انتصار القانون، والفضيلة، والتقوى، على الخيانة والجريمة والاعتصاب للسلطة، ولكم كان محزناً لو أن الرجل العجوز قد رأى النهاية المفجعة لجميع جهوده، ولو أنه أرغم على إدراك أن الصراع الذي خاضه مع أبناء عصره باسم الحرية قد أضعف دولتهم وجلب إليها السقوط ضحية حقيقية لتمزقهم الداخلي ولصراعاتهم، ولاشك أن نصر الإيبلينيين الذي أرخ له فيليب قد حفظ الحريات العائدة لمملكة القدس، لكن من المؤكد أنه أسهم في الخسارة النهائية للمملكة نفسها (\*).

---

\* - هذا صحيح لو عزونا أسباب سقوط عكا إلى أسباب داخلية محضة، لكنها سقطت نتيجة لما تمتعت به السلطنة المملوكية من إمكانيات متفوقة .

obeykandi.com

تاريخ الحرب بين الامبراطور فردريك  
وبين جون دي إيبلين صاحب بيروت

obeykandi.com

## هنا يبدأ التاريخ مع الرواية الصحيحة حول الحرب التي وقعت بين الامبراطور فردريك والسيد جون دي إيبيلين، صاحب بيروت

١(٩٧) : ومن أجل فهم أحسن ومعرفة كيف وقعت هذه الحرب، وكيف بدأت وتوالت، وكيف حدث أن بعضاً من القبارصة التحقوا بالامبراطور، بينما التحق الجزء الأكبر بصاحب بيروت، سيقوم فيليب دي نوفار الذي أسهم في جميع الأعمال والاجتماعات، والذي غالباً ما كان محبوباً من قبل الناس الجيدين لروايته الصدق، ومكروهاً من قبل الأشرار للسبب نفسه، سيقوم بإخباركم بالصدق حولها، وسيحدثكم أيضاً عن الرجال وعن الأفعال العظيمة .

٢(٩٨) : ولقد حدث، بإرادة من ربنا، أن هيوج (١) الملك الطيب لقبرص، الذي كان شجاعاً جداً، قد ذهب إلى الحج في طرطوس (٢)، ومن هناك قصد طرابلس (٣)، حيث كان مريضاً، ثم أنه انتقل من هذا العالم في عام ١٢١٨ وكان ذلك في اليوم العاشر من كانون الثاني، وقد دفن في مشفى القديس يوحنا (٤)، وكانت الملكة أليس (٥) زوجته ماتزال شابة، وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد (٦) : ولد ذكر وابتين، وكان عمر الذكر تسعة أشهر فقط (٧)، وكان اسمه هنري، وقد عرف باسم الملك هنري غراس (٨) Gras، وكانت الملكة أليس المتقدمة الذكر ابنة أخت (٩) مولاي جون صاحب بيروت (١٠)، وكذلك للسيد فيليب دي إيبيلين أخيه (١١) .

٣ : وقدم جميع أتباع الملك الولاء للملكة بمثابة وكيلة، وسأل جميع

الأتباع وطلبوا من السيد فيليب دي إيبيلين، أن يكون وكيل قبرص ليتولى حكم البلاد، وأن يستحوذ على البلاط والأمر على الناس (١٢)، وكان الملك هيوج نفسه قد تمنى هذا وأمر به عند موته، وتسلم السير فيليب الوكالة، وقد نال منها الكثير من المتاعب والحزن، في حين استحوذت الملكة أليس على الموارد التي أنفقتها حسبما أرادت (١٣)، وحكم السير فيليب البلاد بشكل جيد وبسلام، وبكثير من الجودة والشرف والاحلاص والإنفراج، وكان مولاي صاحب بيروت قوياً جداً في سورية، وقد قدم وقت كل حاجة المشورة الجيدة والعون العظيم لشؤون قبرص .

٤ (١١٠) : وحالما صار هنري الصغير - ابن الملك المتقدم الذكر، ملك قبرص - كبيراً ما فيه الكفاية (١٤)، توّجه خاله مع الإقطاعيين الآخرين وسط احتفال عظيم، وتولى ذلك يوستوريو Eustorgue رئيس أساقفة نيقوسيا (١٥)، وهياً كل ما هو لائق لتتولى الكنيسة القيام به أثناء التتويج (١٦)، وكان الامبراطور فردريك غاضباً جداً، تجاه هذين العاملين، عندما سمع بهما، وأعني بذلك الوكالة والتتويج، لأن الملك هنري توجب أن يكون تابعاً إقطاعياً له (١٧)، وقد قال بأن الوكالة له، وأنه ينبغي أن يكون - بموجب إجراءات ألمانيا - وكيل قبرص حتى يصبح الملك في الخامسة عشرة من عمره (١٨)، وبعث الامبراطور عدة مرات إلى الملكة أليس، ملكة قبرص، أن تدعه يتولى وكالة قبرص بنعمة، فذلك سوف يرضيه (١٩)، وقد غضب أكثر نحو التتويج، وقال، لقد توجب أن لا يتسلم الملك هنري التاج الآمنه، وأرسل في خلال ذلك رسائل مرضية جداً إلى الأخوين : مولاي صاحب بيروت، والوكيل السير فيليب، ودعاها دوماً برسائله بالخالين، لأنها كانا خالين للملكة إيزابل ملكة سورية، التي كانت زوجته (٢٠) .

٥ (١١١) وكان في هذه الأثناء بعض الرجال الشباب في قبرص، وكان اسم أولهم السير عموري برلياس (٢١)، واسم الثاني عموري صاحب

بيسان (٢٢ - ٢٣)، وكان هذان أبناء عم من بيت واحد، وكان اسم الثالث السير جوفيان (٢٤) Gauvian، وكان الرابع هو السير وليم دي ريفت (٢٥)، وكان هذان ينتميان إلى بيت واحد، وكان اسم الخامس السير هيوغ صاحب جبلة (٢٦)، وقد انتسب إلى بيت آخر، وكان قريباً لأبناء مولاي صاحب بيروت من خلال أمهم، وقد اتفق هؤلاء الخمسة، وتآمروا ضد البيت الإيليني، مع أنهم عاشوا في حظوة ذلك البيت وتسلموا منه كثيراً من الممتلكات وكثيراً من الحب، لاسيما من مولاي صاحب بيروت أكثر من أي إنسان آخر، وقد امتلأوا بالتكبر، الذي غالباً ما صدر عن الثراء والدعة، وبما أن كثيراً من الناس لا يمكنهم تحمل الرخاء، فقد قادهم ذلك إلى ما قالوه وإلى ما فعلوه، وتوفرت دوماً الأسباب، وعن هؤلاء سوف تسمع فيما يلي :

٦ (١١٢) وحدث أن مولاي صاحب بيروت جعل من ولديه الكبيرين فارسين في قبرص (٢٧)، وكان أولهما السير بالين، الذي غدا فيبعد قسطلان قبرص وصاحب بيروت (٢٨)، وكان الثاني هو السير بلدوين، الذي أصبح كافل مملكة قبرص (٢٩)، وفي أثناء تكريس الفارسين كانت هناك حفلة عظيمة وطويلة كانت هي الأعظم والأطول مما قام به أي إنسان في هذا الجانب من البحر، أو عرفه، وكان هناك كثير من العطايا والانفاق والمبارزات، وجرى إعادة إخراج (٣٠) مغامرات بريتاني والمائدة المستديرة، كما كانت هناك عدة أشكال من الألعاب .

٧ (١١٣) : وفي أحد الأيام بعد تكريس الفرسان، كانوا يلعبون لعبة اسمها Barbadaye (٣١)، وقد حدث آنذاك أن قام فارس توسكاني اسمه تورينول (٣٢) Toringuel وكان من حاشية بيت السير فيليب الوكيل، بطعن السير عموري برلياس كما يفعل الانسان أثناء الألعاب، وقد قيل بأن السير عموري قد غضب وقال بأنه فعل ذلك بشكل شرير وعنيف جداً، ولهذا توقفوا عن اللعب، وكمن في اليوم التالي للفارس هو

وقواته. وهاجموه بشكل وحشي حتى أنهم جرحوه وبات مهدداً بخطر الموت، وكان لهذا السير فيليب غاضباً جداً، وأراد مقاتلة (السير عموري)، ووقف جميع حلفائه إلى جانب السير عموري، غير أن القضية لم تؤثر شيئاً على قوة السير فيليب - الوكيل - فقد تدخل مولاي صاحب بيروت - أخوه - فيما بينهم، وفصل فيما بينهم بالقوة، وأمر ابنه السير بالين بأن يأخذ السير عموري من هناك إلى حيث أراد .

٨(١١٤) : ولم يمض وقت طويل حتى غادر السير عموري برلياس قبرص ومضى إلى طرابلس، وبقي هناك كل الشتاء، وذهب مولاي صاحب بيروت من قبرص إلى بيروت وأمر بالبحث عن السير عموري برلياس في أيام عيد الفصح، ثم حمله إلى قبرص وأحضره فجأة أمام أخيه، حيث كان الأخير لا يعرف شيئاً عن ذلك، وقال (مولاي صاحب بيروت) لأخيه بأنه يرغب منه مسامحة السير عموري بكل وسيلة وبكل طريقة، وقال إنه إذا لم يفعل ذلك هو لن يكلمه أبداً، ولن يراه مطلقاً، وأنه سوف يقبل مصالحة مشابهة للتي هي معروضة من قبل السير عموري(٣٣)، وقبل الوكيل بالمصالحة فقد ذهب (٣٤) بعيداً، واستحوذ السير عموري على براعة كبيرة، وكان مؤيداً لكل واحد من اللوردات، وكان رفيقاً وثيق الصلة بالسير بالين وأظهر نحوه محبة كبيرة، وحدث في هذه السنة(١٢٢٥) أو بعيد ذلك بقليل، أن الملكة أليس ملكة قبرص قد غضبت من خالها ومن الإقطاعيين الآخرين، وذهبت إلى طرابلس، وبدون رضا أو موافقة خالها والاقطاعيين تزوجت هناك من بوهيموند ابن أمير أنطاكية(٣٥)، وأعلن جميع الذين كانوا في قبرص وخاصة السير عموري برلياس أنه إذا صار الأمير وكيلاً لقبرص واستحوذ على السلطة هناك سيكون معنى ذلك موت مولاهم الصغير ودماره .

٩(١١٥) : وتخلّى السير فيليب دي إيبيلين بعد هذا بأمد وجيز عن الوكالة، وذلك على الرغم من عدم رضا جميع أهل البلاد، وأرسلت الملكة

أليس التي كانت في طرابلس رسالة أمرت بموجبها بأن يكون عموري برلياس الوكيل إلى أن تتمكن من القدوم إلى قبرص، وقبل السير عموري بذلك من دون موافقة أي إنسان في قبرص (٣٦)، لأنهم نظروا إليه نظرة إزدراء كبيرة، واجتمعوا في المحكمة وقال السير فيليب دي إيبيلين بأنه يرى في هذا التعيين إهانة كبيرة بالنسبة إليه ورعونة قصوى في أن يمنح السير عموري وأن يتقبل السيادة عليه وعلى الرجال الطيبين الآخرين في قبرص، وأنه ليس هو الرجل الذي يفعل ذلك، لأن ذلك معاكس لما قاله هو نفسه عندما تزوجت الملكة أليس من الأمير، وقام السير أنسيو Anceau دي بري وقال: إن السير عموري برلياس في كل ما قاله وفعله فيما يتعلق بهذا الأمر هو قد عمل بمثابة خائن، ولو أنه كان حاضراً هناك لقال هذا بوضوح أكبر ولبرهن عليه (٣٧).

١٠ : وكان السير أنسيودي بري هذا ابناً لابن خال ألماني لمولاي صاحب بيروت ولأخيه (٣٨) أيضاً، وكان رجلاً شاباً، وقويماً وذا بأس، قوي البنية والعظام ونشيطاً وشديداً، جاهزاً للقيام بأي عمل ولإنجازه، وأديباً نحو رفيقه وعدوه، وكريماً بقدر ما استطاع، وأشقرراً وجميلاً، وله بشرة متوردة، وأنف عريض، مع وجه مهيب مرعب يشبه النمر (٣٩)، وأحبه الأخوان حباً جماً، وهو بالفعل قد استحق ذلك، وكان معلوماً أنه كان في الحرب الأعظم تقديراً بعد الأخوين وأولادهما واللورد الشاب الطيب صاحب قيسارية الذي كان ابن أختها (٤٠)، وعندما سمع السير عموري برلياس بشكل متواتر أن ما قيل بحقه كان قاسياً جداً، غادر قبرص وذهب إلى طرابلس، حيث قرر الانتظار هناك حتى قدوم الامبراطور، الذي جرى الحديث حوله من يوم إلى يوم، وكانت مقاصده أنه بعون الامبراطور سوف يكون قادراً على إخضاع البيت الإيبيليني .

١١ (١١٧) وكان قد حدث قبل بعض الوقت أن تشاجر السير جوفيان Gauvain مع فارس اسمه السير وليم دي لي تور، وأصيب

وليم المذكور بجراحة في الليل هو وواحد من أبناء عمه، وقد قيل بأن هذا قد اقترب من قبل السير جوفيان وأهل بيته، وعوفي الفارس من جراحاته، وجاء إلى المحكمة ومثل أمام الوكيل واتهم السير جوفيان بالخيانة، ودافع (السير جوفيان) عن نفسه، وقدمتا تعهدتهما من أجل القتال، وأنشبا القتال وأقاما السلام على ميدان العراك، وكان السلام مغضباً ومذلاً للسير جوفيان، وقد كبر عليه أن يقوم هذا الفارس بتوجيه التهمة إليه، وبدا له أن (السير وليم) ما كان ليقدّم على اتهامه ويتجرأ على ذلك لولا أنه حصل على تأييد الإيلينيين، وكان (السير جوفيان) حتى بدون هذا الحادث على صلوات متنافرة معهم، ولم يكن قريباً منهم كما كان من قبل، ولقد امتلك بعض العذر، وعلى كل حال المعرفة السير جوفيان بالاخلاص العظيم المتوفر فيهم تجرأ على دخول الميدان، والقيام هناك بالدفاع عن نفسه.

١٢ - وبعدهما ترك (السير جوفيان) الميدان قال بأنه لم يفهم اتفاقيات السلام التي عقدت عندما كان في الميدان، وأنه لن يتمسك بالعهود التي قطعها آل بيته، ثم أنه ذهب إلى الداوية وتوجه من هناك إلى عكا، ومن عكا عبر البحر إلى الامبراطور، وقد خدم الامبراطور لبعض الوقت، وبما أنه كان يعرف الكثير عن الطيور، فقد حظي بمكانة عالية في ذلك البلاط (٤١)، وكان الامبراطور على وشك المغادرة لأن الكنيسة قد أمرته أن ينفذ تعهداته التي قطعها على نفسه للذهاب إلى سورية (٤٢)، وتوجه إلى الميناء (٤٣)، ووصلت السفن، وبات العبور جاهزاً تماماً، وأجل الامبراطور جوازه حتى عبور آخر، وذلك حسب ما يرضيه (٤٤)، غير أنه أرسل بعضاً من رجاله في سفن عبر البحر (٤٥)، وهكذا عاد السير جوفيان عبر البحر إلى قبرص.

١٣ (١٢٢): ومع هذه الأخبار الساخنة التي انتشرت وأفادت بأن الامبراطور قادم، وقبل معرفة أنه آخر عبوره، ارتأى السير عموري

برلياس، الذي كان في طرابلس بأنه سيذهب إلى قبرص إلى المحكمة ليسوغ نفسه ويدافع عنها ضد السير أنسيودي بري وضد ما قاله عنه، واعتقد أنه سوف يمنح فرصة أربعين يوماً قبل القيام بالمبارزة وذلك بعد تقديم عهوده وضماناته (٤٦)، وأنه في أثناء ذلك سيكون الامبراطور قد جاء وأنه سوف يربح قضيته، وذهب السير عموري المذكور إلى قبرص، وتوجه على الفور إلى المحكمة، وعرض الكذب الذي قاله عنه السير أنسيو، وتقدم بطلب الدفاع عن نفسه وبضماناته وتعهداته، وتسلم الملك التعهدات وجرى تحديد يوم المبارزة، وأمر بها بعد موافقة المحكمة، وفي خلال أربعين يوماً وصلت السفن العائدة للامبراطور، وكما تحدثنا من قبل، عُرف أنه لن يأتي بعد، ثم سعى البطريك جيروولد، بطريك القدس (٤٧) ومعه الكثير من الناس إلى إقرار مصالحة بدلاً من المبارزة، لكنهم لم يستطيعوا فعل ذلك، لأن السير أنسيو لم يرغب في عقد أي اتفاق، أو القبول بأية اقتراحات للتصالح .

١٤ - وقامت المعركة ، وفيها خسر السير عموري خسارة قبيحة، ففي الصدام الأول كسر السير أنسيو رمحه، واستبقى السير عموري الذي كان ماكراً جداً، رمحه الذي كان مصنوعاً من أحسن الفولاذ في العالم، وقد أمسكه من وسطه، واندفع ليطعن به ثلاث طعنات على واجهة خوذة السير أنسيو، وقد حطم في كل مرة الواجهة وطعنه بالوجه، ولدى الطعنة الثالثة أزاح السير أنسيو جانباً سيفه وتركه من يده، وذلك بعدما سدده به ضربات عظيمة على خوذة السير عموري، وأمسك الرمح من سنامه المعدني بيده التي كان ممسكاً بها السيف، وهكذا انتزع الرمح بالقوة من قبضة السير عموري، فقد كان السير أنسيو قوياً جداً، وجذب الرمح بشدة، وفقد السير عموري الرمح الذي كان ممسكاً بوسطه، وعندما جذبته السير أنسيو جذبته بعنف كبير حتى أنه ألقى بالسير عموري أرضاً، وكان هذا لابساً درعاً ثقيلة جداً، ولهذا سقط سقطة كبيرة

على الأرض وجرح جراحة قاسية، وقد قام بقدر ما استطاع وهرب عبر الحواجز نحو المكان الذي كان فيه مولاي صاحب بيروت، وراء الحواجز ١٥. وكان قد درب حصانه بشكل جيد جداً حتى أنه لحق به إلى كل مكان، وركض هو نفسه وتبعه فرسه، وأمسك سيفه ووضع نفسه فيما بين الحواجز والفرس، وقام السير آنسيو بكل سرعة بإعادة وضع خوذته، وتناول بقية رحمة، وكان السير عموري قد ازداد ألمه وبات مرهقاً نتيجة لما بذله من جهود، ولم يكن هناك أمامه أدنى سبيل حتى يتمكن من امتطاء فرسه ثانية، لأنه كان مثقلاً بدروعه، وكان فارساً صغيراً، وكان الحصان ضخماً وطويلاً ونشطاً، ثم وضع لمولاي صاحب بيروت وللذين كانوا هناك أن السير عموري لن يستطيع التحمل أكثر، وقد ضغط عليه السير آنسيو عن قرب، ولولا أنه أبعد عن هناك لكان سيترجل لأنه كان مصراً على ذبحه، ودخل مولاي صاحب بيروت إلى الميدان هو وصاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص (٤٨)، ولم يرغباً بالسماح بالمزيد، وتوفر لديهما هناك بعض الفرسان الذين حجزوا السير آنسيو بالقوة بإمساكهم بمقود حصانه، كما أنهم كانوا قد أمسكوا حصان السير عموري الذي كان مرهقاً إلى حد أنه عجز عن التحرك، ومن ثم تحدثوا عن المصالحة (٤٩).

١٦ : ووقع هذا اليوم السير فيليب دي إيبيلين، وهو أخو مولاي بيروت، مريضاً، وقد أصيب بداء مميت، وقد أخبره أخوه صاحب بيروت بأوضاع المتبارزين، ورغب - وهو الذي كان يشعر بالموت - بإقامة السلام بأي سبيل من السبل، وبعث إلى السير آنسيو ورجاه وتمنى عليه، وضغط بوساطة مولاي صاحب بيروت حتى قبل وأبرم الصلح، وأقيم السلام، وتبين أن المصالحة كانت مذلة للسير عموري، لأنه توجب عليه أن يدفع نصف فدية ودفعات قاسية وحادة، ولكنه مقابل ذلك أنقذ حياته، وغادر السير عموري الميدان هو والسير جوفيان، وبقية الخمسة

الأخريين، وهم : السير عموري صاحب بيسان، والسير وليم دي ريفيت، والسير هيو صاحب جبلة، وبعثوا بشكاوى كثيرة إلى الامبراطور ضد بيت الإيبليين، وقالوا عنه كثيراً من الأشياء الشريرة والزائفة (٥٠) .

١٧ (١٢٣) : وفي هذه السنة نفسها، وهي سنة ١٢٢٧ توفي السير فيليب دي إيبيلين، وكان رجلاً جيداً ونبيلاً، وأخاً لمولاي صاحب بيروت، وحدثت وفاته في قبرص بسبب الداء الذي أصيب به، وكان هناك حزن عظيم عليه، وشكل موته خسارة عظيمة لأصدقائه وللبلاد، وكان الحزن عليه عظيماً، وعظيماً توجب أن يكون (٥١) .

١٨ (١٢٦) : عبر في سنة (١٢٢٩) (٥٢) الامبراطور فردريك البحر للقدوم إلى سورية وذلك بناء على أمر البابا غريغوري (٥٣)، وقد وصل أولاً إلى جزيرة قبرص إلى مدينة لياسول (٥٤)، وكان معه سبعين سفينة وغلليون، وسفن نقل الأسلحة وبقية أنواع السفن، وكان الشطر الأعظم من جيشه وأهل بيته وحاشيته ومارشاله وخبوله قد وصلت من قبل إلى عكا (٥٥)، وأخذ السير عموري والسير جوفيان مع مجموعة من أصدقائهما وحاشيتهما سفينة ومراكب مسلحة وتوجهوا لمقابلة الامبراطور، وأبحروا بعيداً حتى سواحل بيزنطة (٥٦)، وما إن التقوا به حتى وجهوا التهم إلى مولاي صاحب بيروت بأنه لم يعاملهم بشكل صحيح، وأشاروا عليه بأسوأ الآراء التي يمكنهم فعلها ضده و ضد ورثته وضد أسرته، وقد روي بأنهم أخبروا الامبراطور أنه إذا ما تمكن من الاستيلاء على قبرص، سيكون بإمكانه تزويد سورية بجميع الضروريات التي سوف يحتاجها هو وآل بيته، وفضلاً عن ذلك سوف يحصل من تلك الجزيرة على ألف فارس .

١٩ : واحتفل بهم الامبراطور احتفالاً عظيماً، وقدم لهم وعوداً كبيرة، وأوضح قائلاً أنه مصدق لهم، وبموجب ذلك كانوا فعلاً مسرورين، وقد وصلوا معه إلى قبرص، ومع هذا بعث الامبراطور برسائل لطيفة جداً إلى

مولاي صاحب بيروت، الذي كان آنذاك في نيقوسيا، يرجوه فيها ويطلب منه بمثابة خال عزيز عليه، أن يأتي للتشاور معه وأن يجلب معه الملك الشاب، وكذلك أولاده الثلاثة وجميع أصدقائه (٥٧)، ثم أرسل إليه رسالة أخرى كانت أشبه بنبوءة بنعمة ربنا، لأنه بعث إليه يقول: إنه هو وأولاده وأصدقائه سوف ينالون الثروة والشرف بقدمه، وهكذا كانوا، والحمد للرب، لكن ليس حسب رغباته، واستقبل رسول الامبراطور استقبالا جيدا في نيقوسيا، وكان هناك سرور عظيم لدى قدمه .

٢٠ : وجمع مولاي صاحب بيروت رفاقه وطلب منهم إبداء الرأي حول الملك الشاب وحوله شخصياً، وأعلنوا جميعاً بصوت واحد أنه لاهو ولا أولاده ينبغي وضعهم تحت سلطان الامبراطور، كما لا يصح ولا يجوز لهم ارسال مولاهم الملك إلى هناك، لأن الأفاعيل الشريرة للامبراطور باتت معروفة جداً، وقال مراراً وأرسل تكراراً كلمات ورسائل طيبة، وأتبع ذلك بأفاعيل مرعبة جداً وظالمة، ولهذا أشاروا بأن عليه أن يعتذر بطريقة ما، وقالوا في الوقت ذاته إن جميع أصدقائه وكل قواهم في قبرص كانت تجهز نفسها بسرعة كبيرة، وهؤلاء على استعداد للحاق به إلى سورية في خدمة الرب، وأنهم سوف يخدمونه في سورية بمثابة مولاهم : «وأن هذا كله قد أبدع من قبل أخيك السير فيليب عندما كان حياً»، وكان هذا اجتماعاً جيداً وقراراً حسناً بالنسبة له، لأنه كان هناك في سورية الداوية والاستبارية مع رجال جيدين آخرين راغبين بالازدهار والسلام، ثم إن الامبراطور لن يكون قادراً على فرض مشيئته على كل شيء .

٢١ : ورد مولاي صاحب بيروت على هذه المشورة قائلاً : بأنهم أشاروا بإخلاص وبحب، غير أنه يفضل أن يؤسر أو يقتل وأن يعاني مما خبأه الرب له، على أن يوافق بأن يكون أي إنسان غير قادر على القول أنه من خلاله ومن خلال أسرته أو من خلال الشعب على هذا الجانب

من البحر، قد جرى تأخير أو إعاقة خدمة الرب في الاستيلاء على مملكة القدس وقبرص (٥٨)، ذلك أنه لا يرغب في أن يقترف ذنباً نحو ربنا، كما أنه لا يرغب أن يقول الناس في العالم كله: «جاء امبراطور روما عبر البحر مع قوة عظيمة، وكان من الممكن له أن يستولي على كل شيء، لكن صاحب بيروت مع آخرين غير مخلصين من رجال ما وراء البحار أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، ولهذا السبب ثاروا ضد الامبراطور، ولم يرغبوا في استرداد الأرض المقدسة» .

٢٢ (١٢٧) : وهذه الأسباب التي عرضت أعلاه، ذهب صاحب بيروت إلى الامبراطور ومعه جميع أولاده وكل أصدقائه وقوات قبرص كلها من فرسان وسيرجنديّة وأخذوا معهم مولاهم الصغير - الملك هنري - إلى الامبراطور، ووضعوا أنفسهم كلياً تحت سلطانه (٥٩)، وقد استقبلهم باحتفاء عظيم، مع مظاهر من السرور عظيمة، وبدا أن أعداءهم قد خاب ظنهم، وسألهم الامبراطور على الفور إسداء معروف له، بالقيام بخلع الثياب السوداء التي كانوا ومايزالون يرتدونها بسبب موت السير فيليب دي إيبيلين، أخوهم، ذلك أنه قال بأن بهجتهم بقدمه ينبغي أن تكون بالنسبة لهم أكبر من الحزن على صديقهم وأخيهم، الذي هو الآن ميت، مع أنه كان أعظم الناس نبلاً وشجاعة، وقبلوا تمام القبول هذا الأمر، وشكروه باخلاص، وعرضوا عليه أجسادهم كلها مع قلوبهم وجميع ما يملكون، ووضعوها تحت تصرفه، وقيد أوامره، وشكرهم الامبراطور لهذا بسرور كبير، وقال بأنه سوف يجيزهم جوائز كبيرة وثرية .

٢٣ : وأرسل الآن إليهم ثياباً أرجوانية بدلاً من الملابس السوداء، وبعث إلى آخرين بجواهر، وسألهم راجياً بلسانه أن يتناولوا طعام الغداء معه في اليوم التالي، وقد أعدوا ملابسهم بكل سرعة في الصباح التالي، وظهروا جميعاً أمام الامبراطور وقد ارتدوا الملابس الأرجوانية، وقام في الليلة التي تقدمت بفتح باب في جدار الغرفة التي قادت إلى الحديقة،

وكان ذلك بشكل سري ، وكان ذلك البيت الذي أقام فيه بيتاً رائعاً، قد بناه اللورد فيليب دي إيبيلين في ليماسول، وأدخل الامبراطور من خلال هذا الباب الخلفي بشكل سري أثناء الليل ثلاثة آلاف رجل مسلح أو أكثر من السير جنديّة، ورماة القسي العقارة والبحارة، فلقد كان هناك تقريباً جميع رجاله المحاربين الذين كانوا في أسطوله، وقد وزعهم على الغرف والإسطبلات، وأغلقت جميع الأبواب عليهم حتى ساعة الطعام، حيث نصبت الموائد وصب الماء .

٢٤ : وجلس الامبراطور وإلى جانبه صاحب بيروت والعجوز صاحب قيسارية الذي كان قسطلان قبرص، وجلس إلى مائدة أخرى طويلة في المكان الأول : ملك قبرص، مع ملك سالونيك (٦٠)، والمركيز حامل الرمح (٦١)، وبقية بارونات ألمانيا والمملكة (٦٢)، وأمر بجلوس جميع فرسان قبرص بشكل يستطيع فيه مولاي صاحب بيروت سماعه عندما يتكلم، ورتب أن يقف ولدي مولاي صاحب بيروت أمامه لخدمته، يحمل أحدهما الكأس ويحمل الآخر الطشت، في حين يقوم الشاب صاحب قيسارية مع السير أنسيودي بري بتقطيع اللحوم أمامه، وتوجب على الأربعة إرتداء أزرق Tunics وقمصان ضيقة من الرقبة حتى الوسط فوق أرديتهم. فهذا - حسبما قيل - كان قانون الامبراطورية وعرفها، وقد خدموه بإرادة طيبة وبنبل، وفعلوا ذلك مرات عدة وقدموا أطعمة متنوعة .

٢٥ : وفي دور الطعام الأخير خرج الرجال المسلحون من أماكنهم التي كانوا قد تركزوا فيها، واستولوا على القصر وعلى الغرف وعلى البلاط الكبير وعلى الباب الرئيسي وبقية الأبواب.... (٦٣)، وكان هناك رجال مسلحين بشكل جيد في القصر حيث كان الامبراطور، وكان هناك عدد كبير أمامه يمسون بالأسلحة بأيديهم، بعضهم ممسك بمقابض سيوفهم وبعضهم بالخناجر، ولاحظ القبارصة ما يجري، لكنهم لم يتفوهوا ولا

بكلمة واحدة، وبذلوا غاية جهدهم لإعطاء مظهر الاسترخاء، والتفت الامبراطور نحو صاحب بيروت وخاطبه بصوت مرتفع قائلاً: أود يا سير جون أن أطلب منك أمرين اثنين، إنك سوف تفعلها عن طواعية وبشكل لائق إن كنت تعرف ما هو المعقول»، وقد ردّ عليه قائلاً: «قل ما يسرك ولسوف أفعل عن طواعية ما سأراه صحيحاً، أو ما يراه الناس الشرفاء مناسباً» .

٢٦ : وقال الامبراطور: «عليك أن تفعل واحداً من اثنين : إما أن تسلمني مدينة بيروت، لأنك متملك لها بدون حق، أو أن تسلمني كل ما يتعلق بوكالة قبرص والحكم فيها مع جميع ما ربحته وحصلت عليه منذ وفاة الملك هيوج، أي موارد عشر سنوات، لأن هذا كله حق لي بموجب التطبيقات الألمانية (٦٤)»، ورد عليه صاحب بيروت قائلاً: «أعتقد يا سيدي أنك تهزأ بي وتستخف، ومن المؤكد بالنسبة لي أن بعض الرجال الأشرار الذين يكرهونني قد اقترحوا عليك هذا المطلب، ولهذا السبب تقدمت به، ولكن - وفقاً لإرادة الرب - إنك سيد جيد وعاقل، وإنك تعرف دوماً المدى الذي كنا قادرين به على خدمتك، ولسوف نفعل ذلك عن طواعية، وبذلك إنك سوف لن تصدقهم»، ثم وضع الامبراطور يده على رأسه وقال: «بحق هذا الرأس الذي لبس التاج مراراً، إنني سوف أنفذ إرادتي في هذين الأمرين اللذين طلبتهما منك أو إنك سوف تعتقل وتجعل سجينا» .

٢٧ : ثم انتصب صاحب بيروت واقفاً وقال بصوت مرتفع وبحضور آمر: «إنني استحوذت على بيروت ومستحوذ عليها بحكم إنها إقطاع لي، لأن مولاتي الملكة إيزابل (٦٥) كانت أختي من خلال أمي، وابنة للملك عموري (٦٦)، وبذلك كانت الوريثة الشرعية لمملكة القدس، وقد قامت هي ومولاها الملك عموري (٦٧) بإعطائي بيروت مقابل وظيفة القسطلان، وكانت بيروت عندما استردها المسيحيون مهدمة

لذلك رفضها الداوية والاستبارية وجميع بارونات سورية (٦٨)، وقد قمت بتحسينها والمحافظة عليها بوساطة مساعدات المسيحيين وبفضل عملي، ولقد استخدمت وأنفقت هناك كل ما حصلت عليه من موارد في قبرص، وإذا كنت ترى أنني متملك لها بشكل غير شرعي فسوف أزودك بالبراهين وأتولى مباشرة عرض المسألة على المحكمة التابعة لمملكة القدس، أما فيما يتعلق بما طلبته مني بشأن موارد وكالة قبرص والحكم هناك، إنني لم أحصل قط على أية موارد، وكذلك لم يحصل أخي عندما كان وكيلًا، وذلك باستثناء مشاكل ومتاعب حكومة المملكة، والذي حصل على الموارد هي الملكة أليس - ابنة أختي - وقد تصرفت بهذه الموارد حسب مشيئتها، أما فيما يتعلق باستحواذ الوكالة قانونياً حسب تطبيقاتنا، إذا ما طلبت مني البرهنة على هذا الحق، فإنني سوف أزودك بالبراهين وفقاً لتطبيقاتنا، وبوساطة محكمة مملكة قبرص، وتأكد أنه بالنسبة للخوف من الموت أو السجن إننا لن نفعل شيئاً سوى ما سيطلبه قرار المحكمة الجيد والمخلص مني أن أفعله (٦٩)» .

٢٨ : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً ، وأقسم ، وتهدهه وقال أخيراً: «لقد كنت قد سمعت من قبل عندما حكى لي عبر البحر منذ وقت طويل مضى بأن كلما تك هي حلوة جداً، وأنتك من أكثر الناس حكمة، وبارع في جملك، لكنني سوف أريك أن مهارتك وبراعتك وكلما تك لن تفيد شيئاً أمام قوتي»، وقد ردّ عليه صاحب بيروت بطريقة نالت الاعجاب العظيم من قبل جميع الذين كانوا هناك، وخاف رفاقه خوفاً عظيماً .

٢٩ : وكان رده كما يلي: «لقد سمعت يا مولاي منذ وقت طويل مضى ذكر كلماتي الأدبية، وسمعت أنا كثيراً ومنذ وقت مضى عن أفاعيلك، وعندما فكرت بالقدوم إلى هنا، حذرني جميع مستشاري بصوت واحد من الأشياء التي تتولى القيام بها، ومن الأسوأ، لكن لم

أرغب في أن أصدقهم جميعاً، ولا يمكن القول إنني لم أخف منك كثيراً، ومع ذلك قدمت وأنا متيقظ وحذر، وما زلت على استعداد لأن أتلقى منك السجن أو الموت، على أن أرضى بأن يتمكن أحد من القول أي شيء سيء حولنا، أو يكون هناك ضرر بالنسبة لحاجة ربنا والاستيلاء على الأرض المقدسة، أو أن تعاق خدماتك من خلالي أو من خلال أسرتي، أو من خلال الذين في البلاد حيثما كنت، أو أن تصل الأخبار إلى العالم المسيحي، فيقولون: ألم تعرف؟ لقد ذهب إمبراطور روما عبر البحر، وكان سوف يتمكن من الاستيلاء على كل شيء لولا ما فعله الإيلينيون، أولئك الخونة فيما وراء البحار الذين أحبوا المسلمين أكثر من المسيحيين، لأنهم ثاروا ولم يرغبوا باتباع الامبراطور، ولهذا السبب فقد كل شيء، وهذا كله تماماً الذي رويته لكم قد قلته لمستشاري عندما تركت نيقوسيا لآتي إليكم، وقد جئت مستعداً تماماً لمعاناة كل ما يمكن أن يأتي، في سبيل حب مولانا يسوع المسيح الذي عانى من الآلام ومن الموت من أجلنا، وهو الذي سوف يخلصنا من الموت أو السجن، فأنا أشكره من أجل ذلك، وبه سأظل مرتبطاً دوماً، وبهذا توقف عن الكلام وأجلس نفسه .

٣٠ (١٢٨) : وغضب الامبراطور غضباً عظيماً وتغير لونه مراراً ، وكرر الناس النظر نحو صاحب بيروت، وكانت كلمات التهديد كثيرة، وتدخل رجال الدين والرجال الجيدين الآخرين للمصالحة بينهما، لكنهم لم يستطيعوا بأي سبيل من السبل زحزحة صاحب بيروت عما قاله وعما قرر فعله، وصنع الامبراطور عدة طلبات غريبة وأعمال تهديد، وتم الاتفاق بالنهاية، حسبما كان صاحب بيروت قد عرض، وليس أكثر من ذلك أمكن للقوة تحقيقه : وجوب أن يسلم إلى الامبراطور عشرين من أعظم أعيان إقطاعيي قبرص، الذين تعهدوا بأجسادهم وبمقتنياتهم وبممتلكاتهم بأن صاحب بيروت سوف يخدمه، ولسوف يذهب إلى

محكمة مملكة القدس، ويقدم هناك براهينه، و فقط عندما سوف يظهر في المحكمة سوف يجري تحرير الرهائن وإطلاق سراحهم .

٣١ : وطلب الامبراطور منه ولديه : السير بالين والسير بلدوين (٧٠)، وكل ما قاله لم يرتض به مولاي، ولذلك وافق بالقوة على أن يأخذهما الامبراطور، ثم قال الامبراطور مخاطباً صاحب بيروت : « إنني أعرف تمام المعرفة أن بالين هو الأثير إلى قلبك، وبناء عليه إنني ما دمت مستحوذاً عليه أنا مستحوذ عليك»، وأمر الامبراطور باستدعائهما، وقدما على الفور، وأخذ أبوهما يمين كل واحد منهما وسلمهما إلى الامبراطور قائلاً : « إنني أعهد بهما إليك، وأدعها بذمة الرب وبذمتك بوساطة هذا الميثاق : أنني حالما أقدم إلى محكمة مملكة القدس مستعداً للبرهنة على حقوقي، سوف يجرران ويطلق سراحهما، وأنت سوف تحتفظ بهما وتحرسهما بشرف، وأنت سوف لن تسبب الضرر لهما أو تعرضهما لأي أذى بالرضا أو بالغضب»، وهنا قال الامبراطور : « وإنني أتسلمهما بذمة إيمان الرب وإيماني، ولسوف يثريان بوساطتي ويتشرفان، إذا أراد الرب»، وبهذا غادر الامبراطور (٧١)، وأمر بوضعهما في داخل أقفاص خشبية (٧٢) واسعة وبشكل بالغ الوحشية، وكان هناك صليب من الحديد قد ربطا إليه، ولذلك لم يكن بإمكانهما تحريك لأيديهما ولا أرجلهما، وفي أثناء الليل ربط بقية الرجال بالحديد معهم (٧٣) .

٣٢ (١٢٩) : وما أن غادر صاحب بيروت المكان، حتى ذهب أعداؤه إلى الامبراطور وقالوا له : « ما الذي فعلته يا مولاي؟ سوف يذهب صاحب بيروت ويشحن القلاع ضدك، ولسوف يثير البلاد كلها، ولن يتمكن عن ذلك بسبب أولاده، ذلك أن معظم الناس يحبونه وسوف يتبعونه، وأفضل نصيحة هي أن تبعث خلفه على الفور، وأن ترسل إليه رسالة لطيفة، وأن تقول له أنه إذا ما فعل ما تطلبه سوف تعيد إليه ولديه، وما أن يأتي تلقي القبض عليه، فالذي يمتلك الشجاعة يمتلك

قطيعه، وبهذه الوسيلة تصبح صاحب قبرص وما من أحد سواك»، وأمر الامبراطور، الذي فعل الكثير من الشرور صدوراً عن إرادته الذاتية ودونما تشجيع، باستدعائه وجلبه، لكن صاحب بيروت كان متيقظاً ومحروساً بشكل جيد من قبل الذين يثق بهم، والذين كانوا معه في اجتماع التشاور، وكان معسكراً خارج المدينة في خيام، وكان هو ورفاقه معهم خيول وسلاح، ولم يكن لدى الامبراطور خيول في المدينة، لكنه امتلك السيطرة على داخل المدينة بفضل العدد الكبير من الرجالة الذي كان لديه .

٣٣ : وعقد صاحب بيروت اجتماعاً وقال إنه يرغب بشحن القلاع وحراسة البلاد لصالح حقوق ورثة الملك هيوج، في حال حدث حادث سوء للملك الذي أخذه الامبراطور وهو متحفظ عليه، ثم إن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت ومعه السير أنسيو دي بري - وكان هذان شجاعان جداً ونشيطان - قالاه : « لا تفعل هذا يا مولاي، بل اذهب إلى الامبراطور وخذنا معك، ولسوف يخفي كل واحد منا مدينة في سوطه، وما أن نمثل أمامه حتى نقتله، وسيكون رجالنا على ظهور خيولهم أمام الباب مسلحين بشكل جيد، وعندما سيكون الامبراطور ميتاً، ما من أحد سوف يتحرك ، وبذلك سوف نقتل أولاد عمنا»، وغضب صاحب بيروت غضباً شديداً ، وهددهما بالضرب و بالقتل إذا ما تكلمتا حول ذلك ثانية، وقال إن هذا سوف يعدّ عملاً غير شريف إلى الأبد، ولسوف يصرخ المسيحيون في كل مكان : «لقد قتل هؤلاء الخونة فيما وراء البحار مولاهم»، ثم استطرد يقول معللاً: « إنه إذا ما مات وبقينا نحن أحياء وأنقذنا، سيصبح حقنا باطلاً، ولن يتم مطلقاً تصديق الحق والأخذ به، وهو الآن مولانا(٧٤)، ومهما عمل سوف نحافظ على إخلاصنا وشرفنا» .

٣٤(١٣٠) وعندها غادر صاحب بيروت عند حلول المساء، وكانت

الضجة كبيرة في معسكره لدى مغادرته، وسمع الامبراطور الضجة، وخاف من ذلك خوفاً عظيماً، ولهذا تخلى عن المنزل الذي كان فيه، وذهب إلى برج الاستبارية الذي كان حصيناً، وقريباً من سفنه، ووضع هناك الرهائن في السجن، وذهب صاحب بيروت مباشرة من لياسول إلى نيقوسيا، واحتلها مع الذين رغبوا باللحاق به، وشحن بشكل كبير قلعة عرفت باسم ديودامور (٧٥)، وإليها بعث بالأولاد والنساء العائدين إليه وإلى رفاقه، وبقي هو ورجاله المسلحين في مدينة نيقوسيا، وبعث الامبراطور إلى سورية يطلب جيشه مع خيول وكثير من المرتزقة (٧٦) للقدوم إلى قبرص، وجاء الأمير العجوز صاحب أنطاكية (٧٧)، وصاحب جبلة (٧٨)، وصاحب صيدا (٧٩)، وعدد كبير آخر من الرجال، وجاءوا إلى الامبراطور ووصلوه في لياسول، وفي الوقت الذي كان فيه هناك، كان السير عموري برلياس وجماعته معسكرين في البيت الذي كان سجناً للرهائن، ويحكى أنه أساء إليهم كثيراً وألحق بهم الكثير من الأذى .

٣٥ (١٣١) : وعندما تلقى الامبراطور فردريك ما يكفي من نجدات، ركب وزحف مباشرة إلى نيقوسيا (٨٠)، وأشار المستشارون التابعون لصاحب بيروت عليه أن بإمكانه التصدي له ومنازلته، لكن رجاله الجيدين قالوا إنه لن يفعل ذلك، لأنه لن يقاتل بمشيئة الرب ضد مولاه، وهو لم يرغب قط بالقتال ضده إذا ما أمكنه تجنب ذلك، لأن من عادته البقاء دوماً مستقيماً نحوه عن طواعية، ولقد قام بهذا العمل وهو آسف، ومادام قد بدأ ذلك فلسوف ينهيه، وأعطاه مولانا نعماً فائضة من المشاعر والحكمة والشجاعة والشرف، وأظهر نحوه حبه أكثر من أي إنسان في أيامه، أو مثيله في الثروة، وقام الإيبيليني بتسليم نيقوسيا إلى الامبراطور وذهب إلى ديودامور، التي كان قد شحنها، ولم يتجرأ الامبراطور على اللحاق به، بل بقي لوقت طويل في نيقوسيا مع عدد كبير من الرجال.

٣٦ (١٣٢) واقرب الشتاء وتلقى الامبراطور أخباراً من بلاده بأن البابا غريغوري والملك جون صاحب القدس كانا يشنان الحرب ضده في أبوليا (٨١)، ولهذا كان خائفاً جداً، وبادر إلى الإسراع للذهاب إلى سورية، ليعقد هدنة مع المسلمين حتى يمكنه العودة إلى بلاده، ولهذا السبب سارع إلى عرض التصالح مع صاحب بيروت، وهكذا جرت المباحثات وتقدمت بوساطة رجال الدين وآخرين بغية الوصول إلى اتفاقية، وكانت المحصلة أن أقسم الامبراطور وجميع بارونات له صاحب بيروت أنه سوف يبعث إليه على الفور ولديه سالمين وصحيحين في الجسد والأطراف، وسوف يحتفظ بالسلام معه، ولن يلحق الأذى به أو بشعبه ولن يغرمهم، إذا لم يكن ذلك بموجب أمر صادر عن المحكمتين، كما أنه لن يحمل في نفسه أي حقد تجاه هذه الأمور التي انقضت، وسوف يمكن الملك هنري شخصياً من تسلم القلاع والمملكة، وبما أن الملك ما يزال طفلاً، فإنه سوف يعين واحداً من أتباعه (هنري) ليتولى حراسة القلاع والمملكة حتى يصل الملك إلى السن التي تؤهله للحكم .

٣٧ : وأقسم صاحب بيروت ورجاله أنهم سوف يسلمون قلعة ديودامور بناء على أوامر ملك قبرص المتقدم الذكر، وأنهم سوف يذهبون مع الامبراطور وسوف يخدمونه طيلة الوقت الذي سيبقى فيه في سورية على حسابهم الشخصي، وهو لن يتحمل أي أذى نحوه أو نحو مؤيديه فيما يتعلق بجميع الأشياء التي مضت، وأصر الامبراطور على وجوب اعترافهم بأن الوكالة عائدة إليه، المطلب الذي ردوا عليه بعدم الموافقة، حتى لو فقدوا رؤوسهم، لأنه فيما يتعلق بالوكالة، فهم قد كانوا رجال المملكة أليس، لكنهم لن يترددوا في إقسام يمين الولاء إلى الامبراطور لأنه المولى الرئيسي لمولاهم الملك هنري، وإنهم سوف يقسمون هذا القسم نفسه بموجب الميثاق التالي : إذا كان قد تقرر في الامتيازات التي وردت في الموائيق التي أقيمت فيما بين والد الامبراطور والملك (عموري) هنري،

بأنه يتوجب على رجال الملك إقسام يمين الولاء، فإنهم سوف يتمسكون بأداء القسم، لكن إذا كان هذا لم يرد بين الامتيازات، فوقتها ينبغي تحليلهم من أداء ذلك (٨٢)، وتعهد الداوية والاستبارية وجميع البارونات والأعيان من كلا الجانبين بالحفاظ شخصياً على هذا السلام، وسلمت قلعة ديودامور وبقية الحصون الأخرى في قبرص إلى الملك، وقام هذا بناء على أوامر الامبراطور وخوفاً منه بتسليمهم جميعاً إلى رجاله الذين كانوا من حزب الامبراطور (٨٣).

٣٨ (١٣٣): وذهب الامبراطور فردريك وأتباعه فوراً إلى فيما غوستا، للاقلاع من هناك (٨٤)، وقدم إليه إلى هناك اسطوله من ليماسول، وأرسل من هناك إلى صاحب بيروت ولديه، اللذان عانيا طويلاً من السجن على اليابسة وفي داخل السفن في البحر، وكانا في حالة مزرية جداً، حتى كان من المؤلم النظر إليهما، ومع ذلك استقبل الامبراطور السيد بالين في بيته وعرض عليه وأعطاه كثيراً، وهو الذي كان شاباً عظيم الشجاعة وفارساً، ونشيطاً وكريماً، وبارعاً، ومقبولاً جداً لدى جميع الناس الذين كانوا على هذا الجانب من البحر، قام بخدمة الامبراطور عن طواعية وبأدب إلى حد أنه كان مسروراً منه، وكان الابن الآخر لمولاي صاحب بيروت اسمه جون (٨٥)، وكان سيّداً، وقد احتفظ به الامبراطور طيلة وجوده في سورية، وقال بأنه سوف يعطيه فوغيا Foggia التي هي في أبوليا، ولهذا السبب عرف باسم جون أوف فوغيا (٨٦).

٣٩ (١٣٤): وأقلع الامبراطور مع اسطوله من فيماغوستا في إحدى الأمسيات عند حلول الظلام (٨٧)، وهرب منه في تلك الليلة نفسها أمير أنطاكية العجوز، وتركه على ظهر سفينة حربية حيث وصل إلى إحدى قلاعه التي عرفت باسم نفين (٨٨) Nefin، ثم إنه قدم الشكر للرب على أنه نجا من الامبراطور، لأنه كان قد قدم إلى قبرص بعدما عقد صاحب بيروت السلم معه (٨٩)، وكان الامبراطور قد طلب من



أنفسهم تحت رعاية رجال الدين حيثما استطاعوا، وهرب بعضهم إلى خارج قبرص، وخاصة السير جون دي إيبيلين (٩٧) - الذي أصبح فيما بعد صاحباً ليافا، وقد كان في ذلك الوقت طفلاً - وقد هرب ومعه أخته مع آخرين من الأسر النبيلة، وحدث ذلك في قلب الشتاء، وقد واجهوا أحوالاً جوية صعبة حتى أنهم نجوا بصعوبة كبيرة من الغرق، وقد وصلوا بعون الرب أخيراً إلى طرطوس، واستولى الامبراطور الآن على قبرص، وكان القبارصة في جيشه في غاية الانزعاج، ولو وافقهم صاحب بيروت لتجمعوا واختطفوا الملك الشاب هنري ولتخلوا عن الامبراطور.

٤٢ (١٣٧): وبات الامبراطور مكروهاً من قبل جميع الناس في عكا، وكان مبغوضاً بشكل خاص من قبل الداوية (٩٨)، وكان هناك في ذلك الوقت مقدم الداوية الأكثر شجاعة، الأخ بيتر دي مونتاغيو (٩٩)، الذي كان باسلاً جداً ونبيلاً، وعظيم الإقدام، وحكياً (١٠٠) أيضاً كان مقدم فرسان التيوتون (١٠١)، ولم يكن شعب السهل (١٠٢) ميالاً نحو الامبراطور، وقد اقترب الامبراطور أعمالاً كثيرة بدت شريرة، واحتفظ ببعض الغلايين مستنفرة تحت السلاح ومجازيفها في أماكنها، وفعل ذلك حتى في الشتاء، وقد قال بعض الناس بأنه رغب في القاء القبض على صاحب بيروت، وعلى أولاده، وعلى السير أنسيو دي بري، وعلى بقية رفاقه، وعلى مقدم الداوية وعلى أناس آخرين، وأنه كان ينوي إرسالهم إلى أبوليا، وقالوا بأنه رغب في احدى المناسبات بقتلهم أثناء اجتماع دعا إليه وجمعهم فيه، لكنهم أصبحوا مدركين لنواياه، وجاءوا بقوة عظيمة لذلك لم يتجرأ أن يحاول قتلهم، ومهما يكن من أمر، لقد عقد هدنة مع المسلمين، حسبما رغب، وذهب إلى القدس (١٠٣)، وتوجه من هناك إلى عكا، ولم يتخل صاحب بيروت عنه، مع أنه كان هناك من نصحه مراراً بالتخلي عنه، لكنه لم يرغب بفعل ذلك.

٤٣ (١٣٨): وجمع الامبراطور رجاله في عكا، وأمر باحتشاد جميع أهل

عكا، وكان هناك عدد كبير من البيازنة، الذين كانوا مؤيدين له وميالين كثيراً إليه، وهناك خطب فيهم وأبلغهم بما رغب به، واشتكى في خطابه كثيراً من الداوية.

وقام بمحاصرة بيت الداوية (١٠٤)، وتضرر بيت الداوية أضراراً كبيرة، لأن الدير كان كله بالخارج، غير أن كثيراً من الناس تقاطروا عليه بحراً وبراً، وإنني لا أعرف كم دام الحصار، لكنه غادره بوضع شرير جداً (١٠٥)، وأعد الامبراطور العدة بشكل سري لعبوره، ودخل إلى غليونه في اليوم الأول من شهر أيار عند الفجر، دون أن يعرف ذلك أحد من الناس، وحين دخل إلى الغليون كان ذلك أمام شارع الجزارين، وحدث هناك أن الجزارين والمسنين من أهل ذلك الشارع الذين كان وضعهم سيء جداً، أنهم ركضوا إلى جانبه ورموه بالفضلات وبقطع اللحم بشكل مهين جداً.

٤٤: وسمع صاحب بيروت والسير يودس دي مونتليارد (١٠٦)، ضجة الكلام حول هذا، فبادرا مسرعين، وأبعدا الناس بالضربات، أي الناس الذين كانوا يرمون هذه الأشياء عليه، وصرخا إليه من جانب البر حيث كانا إلى حيث كان في الغليون بأنهما يدعانه في رعاية الرب، ورد الامبراطور بصوت منخفض جداً بأنه لا يعرف هل هذا سيكون جيداً أم سيئاً، وقال بأنه تارك في مكانه وكيلاً صاحب صيدا (١٠٧)، وغارنيير الألماني (١٠٨)، وكان الامبراطور قد جهز قلعة صور بشكل جيد، وأعطاهما إلى صاحب صيدا ليتولى إمرتها، وجعل الأمور تظهر أنه قد وضع ثقة عظيمة به، وقد اصطحب الامبراطور الملك هنري ملك قبرص معه.

٤٥ (١٣٩): وهكذا غادر الامبراطور عكا، مكروها، وملعوناً، ومرزولاً، ووصل إلى قبرص، وحل في ليماسول، ونصب هناك الملك المتقدم الذكر، أي الملك هنري، وأعطاه زوجة واحدة من قريباته، كانت

ابنة المريكز أوف مونتفرات (١٠٩)، وعقد هناك اتفاقات نهائية مع الوكلاء الخمسة ، الذين سمعت بأسائهم من قبل، والذين كانوا من حزبه، وقد باعهم وكالة قبرص والبلاد بمبلغ عشرة آلاف مارك، وذلك حتى يصل ملك قبرص المتقدم الذكر إلى سن الرشد (١١٠)، وجعلهم يقسمون أنهم لن يمكنوا صاحب بيروت والمتحيزين معه من العودة إلى قبرص، وأمرهم بوجوب طردهم وتجريدتهم من ممتلكاتهم، وقد قبلوا بهذا عن طواعية من الامبراطور، وبناء عليه حوّل إليهم مرتزقة وألمان، وفلمنكيين، ولومبادر توجب عليهم أن يدفعوا لهم، كما التمسوا أيضاً أكثراء بعض المرتزقة من عكا ومن أماكن أخرى، وقام بعض الرجال الذين كانوا من رجال الملك بالالتحاق بهم ووضعوا أنفسهم تحت إمرتهم، بحكم وجود الملك هنري مع الوكلاء، ولأنهم أنفسهم رغبوا بالعودة إلى بيوتهم، لكن القلاع لم تستسلم إليهم إلى أن يدفعوا المال، وسافر الامبراطور فردريك عبر البحر وترك في مكانه رجالاً لتسلم المال وليسلموهم القلاع (١١١).

٤٦ (١٤٠): وكان فيليب دي نوفار وقتذاك في قبرص يقوم بأشغاله الخاصة (١١٢)، وأمره الوكلاء الخمسة بشكل سري، وذلك بعد ما بحثوا عنه في أثناء الليل ورجوه وطلبوا منه بكل مظاهر الصداقة، أن يسعى لإقامة سلام بينهم وبين صاحب بيروت، وقالوا بأن التسوية التي صنعوها مع الامبراطور كانت فقط من أجل استسلام الملك والبلاد وتخليصهم من يديه، وأنهم ما أن يتسلموا القلاع حتى سيفعلوا كل ما يرغب به صاحب بيروت (١١٣).

واتفق فيليب دي نوفار مع الوكلاء الخمسة أنه سوف يقوم بكل سرور بهذه المهمة، وذلك لمعرفته بحكمة مولاه وعفوه، واشترط عليهم أن يقسموا له على الإنجيل المقدس، أنه إذا لم يتمكن من عقد السلام، سوف يأخذونه هو وآل بيته وجميع مقتنياته بأمن وسلام إلى بيروت أو إلى

عكا، وناضل فيليب دي نوفار في سبيل السلام ووجد في مولاه كل ما  
رغب به.

٤٧: وفرض الوكلاء الخمسة الضرائب على فقراء الناس في قبرص  
وسرقوهم كثيراً حتى تمكنوا من دفع المال وتسلم القلاع (١١٤)، وكان  
لديهم في ذلك الحين عدد كبير من الرجال، حتى أنهم عدّوا أنفسهم  
أقوياء جداً (١١٥)، ومن ثم وافقوا وقادوهم بحماقة نحو مايلي:

لقد أصبحوا متعجرفين واعتقدوا أنهم سوف يستحوذون على البلاد  
ويدافعون عنها، ويتغلبون على مولاي صاحب بيروت وعلى حزبه، ومع  
هذا تابعوا الحديث بشكل سري عن السلام مع فيليب، ثم أمروا شعب  
البلاد بالاجتماع في بلاط الملك، وذهب واحد منهم شخصياً لإحضار  
فيليب ووضع يديه حول عنقه وترجاه أن يذهب إلى الملك، لأنهم رغبوا  
في عقد اجتماع خاص معه، وقد ذهب عن طواعية، لأنه وثق وثوقاً كبيراً  
بالقسم الذي أدوه إليه.

٤٨: وعندما دخل فيليب دي نوفار إلى بلاط الملك وجد الأبواب  
محروسة بكثافة من قبل رجال من أتباع بيوت الوكلاء الخمسة، وقد  
حفظوا الأبواب بشدة حيث لم يسمحوا لأحد بالجواز إلى الخارج، وكان  
فيليب خائفاً لكنه لم يظهر أدنى علامة على ذلك، وعندما اجتمع  
الجميع وقف واحد من الوكلاء، وكان واحداً خطيباً مفوهاً، واسمه وليم  
ريفت، وقد تكلم لمدة طويلة بكلمات جميلة، وقد قال بين أشياء بأن  
صاحب بيروت قد فقد بحماقة الملك والبلاد، وأنهم (أي الوكلاء) قد  
استردوا بعقلانية كلاهما الواحد ثم الآخر، وقد اشتروا الوكالة، ولهذا  
السبب إنهم يطلبون من شعب المكان أن يقسموا لهم على الاحترام، وأن  
يقفوا إلى جانبهم وأن يحافظوا عليهم بمثابة وكلاء لهم حتى يصل الملك  
إلى سن الرشده، وكان الملك في أيديهم وكان خائفاً جداً، وقد تكلم  
الملك بصوت منخفض، وغالباً ما نظر نحو فيليب.

٤٩: وجلب على الفور الإنجيل المقدس إلى ذلك المكان، وقال السير عموري برلياس إلى فيليب دي نوفار «إذهب أنت أولاً قبل الجميع وأقسم، ذلك أننا نرغب بشكل خاص أن تكون أنت الأول»، وانتصب فيليب قائماً وقال: «تحدث إلي ياسيد أولاً على انفراد، أنت ورفاقك»، وقد ردوا عليه جميعاً وقال الخمسة: «بعون الرب، لن نفعل ذلك، لأنه يتوجب علينا أن نفعل كثيراً جداً، إذا ماتشاورنا مع كل واحد من هؤلاء الذين سوف يقسمون، وبذلك ما من شيء سوف ينجز، لكن أقسم، ولسوف نصنع أشياء أكثر لك مما قدمه أولئك الذين خدمتهم حتى الآن، وأي واحد منا تريده سوف يعطيك إقطاعاً لك ولورثتك، ولسوف ندفع كل ديونك (١١٦)».

٥٠: ورد فيليب قائلاً: «إنني عظيم السرور، أنكم عرضتم علي هذا العطاء العظيم على مسامح هذا العدد الكبير من الناس، وتشريفكم لي دليل على تقديركم العظيم، وأنا أشكركم على ذلك وافر الشكر، لكنني غير قادر على فعل ما سألتموني أن أفعله، لأنني رجل تابع للمملكة أليس بموجب وكالتها، وإذا ما وافقت وأقسمت على عدكم وكلاء، عندها أكون قد خرقت تعهداتي»، وعندها صرخوا بصوت واحد: «ليس لهذا السبب إنك ترفض، بل لأنك لاترغب في أن تكون ضد صاحب بيروت»، وقال فيليب: «إنني بمشيئة من الرب، لن أكون ضد صاحب بيروت، لأنني أحبه وأحب أولاده أكثر من أي جماعة أخرى في العالم»، وهنا قال هيوج صاحب جبلة: «هل سمعتم ماقاله؟ إنني أقترح أن نقوم بشنقه»، ورد فيليب على هذا بقوله إنه لايتفق مع ماقاله السير هيوج، وكان والده السير برتراند قد تكلم مرارا بشكل أكثر عقلانية، ثم إنهم صرخوا جميعاً، وقال واحد منهم: «خذوه» وقال آخر «اقتلوه الآن على الفور».

٥١ — وازداد اضطراب فيليب نحو هذا وقلقه، ويئس من حياته،

وجثا أمام الملك وكرر على مسامعه العهد واليمين الذي قطعه الوكلاء الخمسة معه، وقدم ضماناته وعرض أن يتبارز —وفقاً لقرار المحكمة— شخصياً ضد واحد من الخمسة، وذلك تماشياً مع ما ادعاه، وقام عدد من أتباعهم، ممن كانوا فرساناً، بتقديم ضماناتهم ضد فيليب، لكنه رفضهم جميعاً بسبب ما قاله، وأصر طوال الوقت على طلب منازلة واحد من الخمسة، ذلك أنه قال بأنه كان من المؤكد معادلاً لهم، وأنه من السهل عليه البرهنة على ذلك، بكفالة عدد من الرجال الجيدين من بلاده الموجودين في قبرص وسورية، وقد أنكر كل واحد منهم ما قاله، لكن مامن واحد منهم عرض ضماناته للمبارزة، وبناء عليه اعتقلوه، ووضعوه تحت الحراسة في واحد من أماكن القصر، وتولى حراسته فرسان حملوا بأيديهم السيوف مجردة، وأعجب الناس كثيراً بما قاله فيليب وبما فعله، وأمر الوكلاء بإحضار قفص كبير، وأمروا بوضعه هناك، لحمله به إلى قلعة ديودامور، وفي الوقت نفسه حرسوه في القصر بشدة طوال الليل، وأدى بقية الناس اليمين للوكلاء.

٥٢— واجتمع الوكلاء الخمسة على انفراد وتشاؤروا، وقالوا: «لقد طلب هذا الرجل المحاكمة في المحكمة، وإذا ما أخذناه بدون ذلك، سيكون ذلك خرقاً، لكن دعونا نطلب منه تقديم تعهدات و ضمانات بمبلغ خمسة آلاف مارك من الفضة بأنه سوف يمثل في اليوم التالي في المحكمة، بالشكل الذي هو عليه الآن، ودعونا نقول له إنه إذا ما أقسم هكذا فسوف يحاكم بالمحكمة، وعندما سوف يغادر من هنا دعونا نقتله بحكم أنه عدو خطير لنا، ولنفعل ذلك الليلة»، وهكذا بعدما أعدوا ما أرادوه، طلبوا التعهدات منه، ورد فيليب دي نوفار أنه لا يحتاج إلى تعهد و ضمانات، وبحكم كونه تابعاً اقطاعياً هو لا يحتاج إلى تقديم أي شيء من هذا القبيل، ثم إن سمعته وصدقه واقطاعه ضمانات له، فأخبروه بأنهم سوف يؤمنون له حفظاً جيداً لسلامته، وعرضوا عليه أن يضمّنوه

هم أنفسهم، غير أنه شكرهم، وتمنى أنهم سوف يقدمون مثل هذه الخدمة له عندما سيكون بحاجة إليها.

٥٣ (١٥١) — وما أن غادرهم فيليب دي نوفار حتى توجه مباشرة إلى مقر الاستبائية، واستطاع أن يتدبر في تلك الليلة نفسها جمع مائة وخمسين رجلاً مسلحاً، وقد وجد هناك نساء وأطفال الذين كانوا في سورية مع صاحب بيروت، ولولا أن فيليب قدم إلى هناك لقام الوكلاء الخمسة يدخول المكان في اليوم التالي، ولتولوا أسره (١١٧)، وهاجموا في تلك الليلة نفسها البيت الذي كان يقيم به من قبل واستولوا عليه، وقد وجدوا فراشه معمولاً، فطعنوا الغطاء برماح كثيرة وبسهام، وكان هناك رجلان يتوليان حراسة البيت، وقد قتل واحد منها، وأصيب الثاني بجراحة بالغة.

٥٤ (١٤٢) — واستولى الوكلاء الخمسة في اليوم التالي على جميع أقطاعات مولاي صاحب بيروت واقطاعات رفاقه، وتندبر فيليب ضخ الماء من أحد الصهاريج وكان موجوداً داخل برج الاستبائية، وبذلك تم صنع الكثير من الكعك، وشحن البرج بالمؤن وسلحه بأدوات الرمي، وعندما علم الوكلاء الخمسة بأن فيليب كان موجوداً هناك، حاصروا المكان وشددوا الحراسة من حوله ليلاً ونهاراً حتى لا يتمكن من الخروج منه، ورجب فيليب دي نوفار بالإخبار بما يجري ولاسيما إعلام مولاي بالين دي إيبيلين، الذي كان رفيقه، وعندما شرع بكتابة الرسائل، تولدت لديه الرغبة أن يكتبها شعراً، وبما أن السير عموري برلياس كان الأكثر شراً من البقية، فقد أشار إليه باسم رينارد، ولأنه في جميع قصص رينارد غريمبرت Grimbert، هو الغرير، وهو ابن عمه فقد دعا عموري صاحب بيسان باسم غريمبرت، ولأن السير هيوغ صاحب جبلة له فم ملوي، ويبدو دوماً وكأنه مكشر، فقد دعاه فيليب «القرد».

٥٥ (١٤٣) — وهاهو الكتاب شعراً، الذي أرسله السير فيليب دي

نوفار، عندما كان محتجزاً في مقر فرسان القديس يوحنا في نيقوسيا، إلى  
السير بالين دي إيبيلين، الذي كان موجوداً في عكا:

أكثر من مائة ألف تحية يرسل إليك،

أيها السيد اللطيف والصديق، والذي هو الآن أخ جديد.

لسنا الآن بصدد الصليب الأبيض، فلدينا الكثير لنعمله

ذلك أنه قد لا يتمكن أن يغني هذه السنة لساعات أو أن يقوم  
بالقداس كاملاً.

أيها الصديق اللطيف، أرضك الآن تمثل اسبانيا،

هناك خمسة وكلاء في جمع واحد فوق سهلها.

لقد أظهروا حباً عظيماً نحوي، وناضلوا في سبيل كسبي

إلى جانبهم، لكنني رفضتهم. بازدراء

وبغضب، وبدون محاكمة قانونية، بل بالقسر

ألقوا القبض علي، ورموني بالأغلال، ولزيادة الآمي

أبدوا نحوي تلك الليلة كل الأعمال الوحشية:

لقد حرسوا الأبواب بقوة، ومامن أحد أمكنه المرور خلال

السلاسل.

وصاحب الوجه الحاد أقامهم هناك، وهو الذي كان متشوقاً

ليفدي بنفسه المملكة كلها.

نا لم أر تلك الليلة أي حيوان متوحش

مثل الذي أدخل رأسه إلى الحقل. وإذا حدث

بمشيئة الرب، وزالت هذه المحنة من حوله  
سيقيم عيداً كل سنة لجميع كبار القديسين

وهكذا وضعت خلال تلك الليلة في المحكمة:  
الكلام الطيب والتماس العدالة لم يكسبني شيئاً  
وعلى الرغم مما قلته، حكموني بلا حق ولا قانون  
في داخل القفص أوثقني الخونة بشدة  
ثم أرادوا قتلي خيانة أثناء الليل  
لكنني أنذرت من قبل واحد، لم يعبأ أبداً بالذي لن  
يرضى، وقدم لي نصيحة مخلصه في محنتي.

إنني الآن متدثر برداء من أردية الاستتارية  
وإنني لوائق بالرب، في أنني سوف أخرج هذه السنة من هذا  
الضييق

وعارف أن بالين سوف يأتي بين بني قومنا  
وأنسيو، صاحب الأنف المفلطح، أستدعيه هو الآخر

إن الذي وقف فيما بين الحواجز وبين حصانه  
قد حاصرني، وضربني، في داخل مقر الاستتارية بالقوة.

لو أن الرب ترك الشقي يقتل، لتوقف مصدر  
الكثير من المآسي التي وقعت في قبرص

لو أنهم عوضاً عن ذلك اتفقوا مع أنسيو صاحب الأنف المفلطح  
عندما رمى بنفسه من على ظهر حصانه فوق رأسه  
لكان الجميع قد قال: «لك الشكر من الرب والمنة»  
ومن ثم تفوهوا غناء بتبريكاته النهائية

★★★

بالين، لاتنس السجن والأغلال طويلاً  
السرور قد يخفي ذلك، لكن الأمر معروفاً من قبل حشد كبير

لئن اعتقلوك، لاتأبه بذلك ولا تستح منه  
لأن الذي أخذك، اعتقل ملكاً وكونتا سواء  
غير أن الذي يزعجني و يؤلمني أنهم جميعاً يقولون:  
إن ذلك قد عمله، الذي هو عار بالنسبة للبشرية؛  
ويظهر هذا كم هو يخشاك ويخاف من اسمك.

تذكر يا بالين أنه قد حدث في أيامك  
أن الذي دفع الفدية ليخرج من الميدان يحكمك الآن كعبد.

يتوجب عليك استدعاء مولاي صاحب نابلس  
وخالك الطيب، فلعله سوف يفيدك كثيراً  
بحق الرب ادع الفيليين صاحبي نابلس ويبنى  
وخال والدك، مولاي بلدوين اللطيف  
الذي لم يحن رأسه لانسان حي، ولم يخفض ذقنه مطلقاً،  
ولئن تخاذلت أمام خمسة من الأشرار وتوانيت  
ليتولى الرب الذي عاقب قايين ودمره لذنبه  
تدميرك ومعاقبتك، مالم تتصبر.  
من أجل الرب، ضع حب شؤون عكا جانباً  
أنت والسير بدغره، الذي مجدداً ارتدى ثوب النمر  
من أجل ثعلب خسيس رماه المهر ولم يستطع ركوبه  
والذي يتحرك هنا، حتى أن اللومبارد سايروا هذا الاتجاه....  
وإذا كنت تحب النساء، فقد أرادا أسرهن  
بوساطة الحصار، كل من رينارد وإلى جانبه غرمبيرت،  
الذي نشر أمام مقر الاستتارية علمهم عريضاً.  
وقد راقبنا، طوال الليل، وهم مسلحون بنشابهم ورماحهم  
ملاك الأراضي، والعدل قد حرموننا وأنكروه علينا  
والسيدات وواحد لومباردي فقط في الداخل  
وواحد جبان وآخر رعديد، كيف يمكنك التعايش مع هذا؟

لدى رؤيتهما، تذكرت، والرب هو مرشدي،  
بقلب محترق غداً بعد عيد الفصح  
فكل واحد جعل نفسه ملكاً، لكنه واحد بين أربعة  
عفوك يارب، إنها لعبة الأطفال في الجري والاختباء  
ملك في يوم، وفي الصباح التالي، كل واحد تجارته باثرة.  
أنا بحاجة للضحك لدى رؤيتهم في الوكالة:  
هيوج صاحب الفم المكشور، الذي تنكر لوالديه،  
ووليم دي ريفت، الذي يرى في نفسه حكيماً  
ورينارد، الذي امتلك الدهاء ليتخلص من المباراة  
وعموري وجوفيان اللذان من أصل مختلف  
وإذا ماعرفتهم جميعاً، لن يكون أحد أكثر منك غضباً  
وإذا ماغنيت أو نظمت حولهم، فهذا ليس عملاً ساخطاً:  
إنني عندليب، وقد وضعوني داخل قفص  
ينبغي ألا تلومني إذا لم أضع بشكل جيد تماماً  
الأوزان الشعرية، ولم أصقل كل بيت منه  
وإذا كنت مسجوناً، إنهاء الأغنية هي غايتي  
بشعر دوبيت أو على الأقل بشعر أبيات منفردة

٥٦ (١٤٤) — وتلقي هذا الشعر واستقبل في عكا ببهجة عظيمة،  
وصرخ الجميع: «دعونا نذهب على الفور لإنقاذ السيدات واللومباردي»  
(١١٨)، وأعدوا أنفسهم بكل سرعة، وكان هناك كثير من الرجال

الجديدين والسفن الممتازة، وقدم صاحب بيروت جميع التجهيزات للسفن وللسيرجندية، كما وجهز الفرسان وأعطى الجميع كل ما يحتاجونه، وقد عبروا البحر ووصلوا إلى كاستري (١١٩) Castrie ، وقاوم الوكلاء الخمسة بشدة عملية الاستيلاء على الميناء، ومع هذا تم الاستيلاء عليه بالقوة، وتراجع الوكلاء الخمسة وعادوا إلى نيقوسيا، حيث كانوا واضعين الملك تحت الحراسة، وبعث صاحب بيروت والناس الذين معه برسائل لطيفة وودودة إلى الملك، لابل حتى إلى الوكلاء الخمسة، قائلين بأنهم قدموا من خدمة الرب (١٢٠)، وأنهم يرغبون بالعودة إلى منازلهم واقطاعاتهم، وأنهم كانوا على استعداد لعمل كل من العمل الصحيح ولفرض حقوقهم، لكن الوكلاء الخمسة لم يتنازلوا بالرد.

٥٧ (١٤٥) - وركب صاحب بيروت وصحبه على تعبئة وزحفوا بصفوف متراصة حتى وصلوا إلى أمام نيقوسيا، وخرج الوكلاء الخمسة من المدينة وأخرجوا معهم شعب المدينة بالقوة، وكان معهم جميع التيركوبليه (١٢١) والمرتزة، وهكذا تفوقوا عددياً بشكل كبير على قوات صاحب بيروت، ووضع رجال الدين أنفسهم بين الفريقين بغية المصالحة، لكن ذلك لم يقد، وقام قادة الأرتال بتقدير بعضهم بعضاً، واستطلعوا قواتهم من هذا الجانب ومن الجانب المقابل، ووضع كل منهم نفسه أمام الذين كرههم أكثر، وهكذا تقدموا جميعاً، وكانت المعركة هي الأسوأ والأشد قسوة بشكل مطلق مما وقع على هذا الجانب من البحر، وكان عدد الفرسان الذين سقطوا هم وخيولهم كبيراً وكذلك الناس الذين قتلوا، وجرت المعركة في أرض محروثة، وكانت هناك ريح غربية شديدة الهبوب، وكان الغبار كثيفاً حتى أن مامن شيء كان يمكن أن يرى، وقتل في هذه المعركة السير جوفيان العجوز صاحب قيسارية، الذي كان قسطلان قبرص، وابن ختن مولاي صاحب بيروت (١٢٢)، وقتل أيضاً السير جيرارد دي مونتاغيو، الذي كان ابن لكل من مقدمي الاستبارية

والداوية، ولرئيس أساقفة قبرص يوستوريو Eustorgue ، لأن حصانه تمدد فوق جسده لمدة طويلة (١٢٣).

٥٨ — وقام أولاد مولاي صاحب بيروت في هذه المعركة بأعمال مدهشة في القتال، وأنجز فوق الجميع السير بالين روائع، وانتخب الوكلاء الخمسة خمسة وعشرين فارساً، كانوا هم الأعظم نشاطاً بين رجالهم ليحاولوا قتل مولاي صاحب بيروت، وشطر مولاي صاحب بيروت فم واحد منهم، لأنه لم يكن لديه واقية وجه مثبتة على خوذته، وبضربته له رماه أرضاً مقتولاً، وخلال المبارزة نفسها سقط فرس مولاي صاحب بيروت في الخندق، وارتدى الوكلاء الخمسة قلانس مذهبة ضخمة فوق خوذهم ليميزوا بها، ومع هذا قهروا وهزموا بمشيئة الرب، ونجا جميع الوكلاء الخمسة، وفروا أولاً إلى عند هيوح صاحب جبلة الذي قاد قوات المؤخرة.

٥٩ — وعندما كانت الهزيمة قائمة وكذلك الفرار لبعض الوقت وانجلى الغبار، و بينما كان السير بالين دي ايلين يقوم بأعمال المطاردة بعيداً، وجد مولاي صاحب بيروت نفسه وحيداً في ميدان المعركة، ومعه لست أدري كم من النبالة على أقدامهم، و كان أمامه في الميدان من الأعداء ما لا يقل عن خمسة عشر فارساً، و كانوا هم الأفضل و الذين نشطوا في القتال، و عندما انجلى الغبار عرفوه و عرفهم، و عندما رأى صاحب بيروت أنه كان وحيداً، ترجل ودخل من خلال باب صغير إلى ساحة حيث كانت هناك كنيسة صغيرة، و ذهب سيرجنديته معه، و هكذا دافع عن نفسه بقدر الإمكان و معه سيرجنديته، و طعنوا بالرمح الذين اقتربوا من الخارج لتدمير الجدران و شق طريق نحو الداخل .

٦٠ : و قضى الرب أن وصل و قنذال السير أنسيودي بري ممتطياً ظهر حصان كبير وقوي، و كان مغطى بالحديد، و فوق الحديد تجافيف جيدة، ورمى بنفسه عليهم، و أبدى مهارة كبيرة في استخدام السلاح

حتى أنه كسر رمحه، وسيفه، لابل حتى خنجره قد انكسر، و تلقى ضربات هائلة حتى لم يعد قادراً على استخدام يديه إلا بصعوبة بالغة، و بناء عليه وضع ذراعيه خلال المقود، و عندما جاء بعضهم ليهدم الجدار استخدم مهازية و حال بينهم و بين هدم الجدار، و فعل أشياء عظيمة حتى أن مولاي صاحب بيروت صار صديقه الصدوق طيلة حياته، و حدث بمشيئة الرب أن السير بالين ابنه الذي كان معه عدد كبير من الفرسان، عندما رأى أن والده ليس هناك، عاد إلى الميدان، حيث ما أن رأى خصومه راياته حتى تولاهم الرعب و هربوا نحو مدينة نيقوسيا، و قام السير بالين الذي جاء متقدماً على الجميع بمهاجمتهم بحماس و ضرب حامل رايتهم بشدة متناهية مما أدى به إلى السقوط إلى الأرض، و سقط حصانه معه أيضاً، و أخذ كثير منهم أسرى و قتل أيضا العديد، لكن عدداً كبيراً نجا لسقوط السير بالين .

٦١ : و اعتصم السير عموري برلياس ، و السير عموري صاحب بيسان و السير هيوج صاحب جبلة في قلعة ديودامور، في حين مضى السير جوفيان و رجاله إلى كتارا (١٢٤) ، و أوقع فيليب دي نوفار الذي خرج من دار استبارية القديس يوحنا مع رجاله، فيهم أضراراً بالغة، و لاسيا بالذين كانوا في المدينة، و بعث الوكلاء الخمسة المتقدم ذكرهم أعلاه من يجلب هنري الملك الشاب ، قبل أن تبدأ المعركة، و قد حملوه بالقوة ووضعه في قلعة ديودامور، و احتفظوا به هناك و أبقوه بمثابة سجين تحت الحراسة، و وقعت المعركة السالفة الذكر في مكان أمام نيقوسيا في يوم السبت في الرابع عشر من شهر تموز في سنة ١٢٢٩ (١٢٥).

٦٢ : و في اليوم التالي للمعركة حوصرت القلاع، و تولى مولاي صاحب بيروت حصار سيرينا(١٢٦)، و قام أولاده : السيربالين، و السيربلدوين، و السيرهيوج(١٢٧)، بحصار قلعة ديودامور، و حاصر

السيرآسيودي بري قلعة كنتارا، التي كان فيها السير جوفيان، و عقد مولاي صاحب بيروت -الذي كان يحاصر سيرينا -معاهدة مع اللومبارد الذين كانت القلعة المذكورة بأيديهم، شرطت أنهم إذا لم يتلقوا نجدة خلال مدة محددة، سيقومون بتسليم القلعة له، و هو سيقوم بدوره بالدفع إليهم المال المستحق لهم عن كل من الماضي و الحاضر، و تولى فيليب دي نوفار إعداد هذا الصلح، و تسلم القلعة في الوقت المحدد لصالح مولاه، و اصطحب اللومبارد و قادهم إلى خارج قبرص .

٦٣ (١٤٧): ثم نظم فيليب دي نوفار أغنية، و بعث بها إلى القسطلان في عكا، وجاء نظم هذه الأغنية كما يلي :

سوف أقول لكل العالم في أغنية

المتكبر و الأحمق، من درجة عالية جداً

و حيث مامن انسان قد سمع قط أو رأى

مثل و كلاءنا الخمسة الذين ازدروا القانون و الحق.

و قد تجاهلوا العدالة و الحفاظ عليها:

و قد سلبوا زملاءهم و مولاهم

من اقطاعياتهم الموروثة، ثم إنهم ابتهجوا

و لمنع ذلك جاءوا إلى قبرص ثانية

عندما بدون ذنب سلبوا تماما

أولئك الذين كانوا حجاجا قدموا عن طريق البحر

من سورية و من عكا إلى كاستري

ثم بعثوا مباشرة إلى الملك رسالة لطيفة  
أنهم قد جاءوا إليه ، على وفاق و اتفاق  
عازمين على فعل الحق، و للحق محافظين  
و لم يتنازل هؤلاء الوكلاء الخمسة للإصغاء.

دوماً جلب تكبرهم إليهم محنة محزنة  
رجالنا على سهل نيقوسيا  
يوم سبت نالوا النصر  
و استردوا إقطاعياتهم، و بيوتهم و شرفهم ، بقوتهم  
و هلك الخونة القذرين بحد السيف  
و ابتغى بعضهم أي مأوى يحصل عليه في أي قلعة

★★★

و أسر بعضهم، و طورد بعضهم الآخر فوق السهل

و كان المقدم و قائد الهزيمة  
هو الذي تولى قيادة قوات الساقة  
حيث ما أن رأى المقدمة قد هوجمت، حتى على الفور هرب  
على ظهر مهرة الداكن الذي جرى به بقدر ما استطاع  
فقد الحمقى في ذلك اليوم بسبب الخلاف و الخروج

الأرض، و الشرف، و الأقرباء، و الرفاق الذي شاركوهم مصيرهم  
و حمل هؤلاء و الساذجين وصمة العار معا:  
و الأفضل لهم الآن أن يتحولوا إلى رهبان وسط عارهم و آلامهم

شاهدنا في ذلك اليوم سقوطاً مدمراً من ارتفاع شاهق  
و لتدمير عجرتهم المجنونة و باطلهم  
هرب صاحب الوجه المشوه مجللاً بالعار  
وآخرون كثر منحطين و فرسانا خونه  
إلى داخل ديودامور وهناك تخفوا،  
و احتجزوا هناك سجيناً مولاهم الشرعي  
احكم جيداً : أولا ينبغي شنقهم بحبل السجان و قتلهم؟  
لقد اعتقلوه، و بذاته سجنوه

هؤلاء الأشرار الذين ينبغي تمزيقهم أثاروا  
بعض رجال حمقى ليعتقدوا، بوساطة الخيانة  
أن مولاي اقترف جريمة هائلة  
بحصاره الملك و بازدرائه الحق .

★★★

تحول الرعاة الآن إلى ذئاب يزمجرون ويزأرون

ومادام خال الملك يحميه، إنه كله باطل  
أن تأخذه من الحفظ لبيعه ثانية  
امض أيتها الأغنية الموجعة وطيري كالسهم  
واحملي حتى إلى سورية أخباراً مني  
إلى القسطلان الذي يجبنا بإخلاص  
وأخبريه أن عملنا يسير بشكل صحيح  
الشكر لخالقنا وإلى ربنا  
سوف يضحك كثيراً لدى رؤيته أن لينغير قد اعتقل  
أنا مرسل إليك لسانه وأنفه لقطعهم قطعتين

١٤٨)٦٤) وذهب صاحب بيروت إلى حصار قلعة ديودامور، وعسكر  
عند نبع التين، وكان أولاده فوق، أمام القلعة، وقامت القلعة في موقع  
حصين جداً، فوق أعلى الجبال، واحتاج حصارها كاملاً إلى عدد كبير  
من الرجال، لأنه كان بإمكان الانسان أن يخرج منها من أماكن كثيرة  
غير بابها، وكان في داخلها حامية كبيرة من الرجال على الخيول وعلى  
الأقدام، فقد هرب إليها معظم الذين نجوا من المعركة، ولقد حدث  
قتال شديد أمام الأسوار، وغالباً ما كان أمام الباب، ومع هذا كانت  
معاناتهم الشديدة من المجاعة، وهكذا أكلوا خيولهم، وبسبب أن الذين  
كانوا بالخارج شعروا بالأمان، تجول الفرسان ذهاباً وإياباً في البلاد حسبما  
رأوه مناسباً، ومن ذلك حدث أن صاحب بيروت ذهب إلى كتارا لرؤية  
آلة حصار عظيمة Trebuchet (١٢٨)، كان السير أنسيودي بري قد  
أنشأها، وفي الوقت نفسه انتشر أولاده الثلاثة المتقدم ذكرهم أعلاه  
وتوزعوا في المنطقة، لهذا بقي عدد قليل من الفرسان يتولون الحصار،  
وأدرك الذين كانوا بالداخل هذا، وقاموا بإنقضاض عنيف تمكنوا به من

إنزال الهزيمة بالذين كانوا يحاصرونهم، واستولوا على معسكر الفرسان وعلى الأطعمة التي كانت فيه، ولو أن هذا لم يحدث لما استطاعوا الصبر كما فعلوا .

٦٥ ( ١٤٩ ) : وكان السير بالين في نيقوسيا مع عدد قليل جداً من الفرسان، لأن الموسم كان شتاءً، وكان الفرسان في بلادهم، وكانوا متراخين يقومون بأعمال الرياضة، ولدى سماع السير بالين بالأخبار جاء، واسترد المعسكر، وتابع المطاردة حتى باب السور، وحطم رمحه على حديد باب السور، وكان معه عدد ضئيل من الرجال الأشداء لهذا كانت المعركة مدهشة، ولم يكن هناك تدمير في كل الحرب مثل الذي أحدثته القتال في ذلك اليوم، وكان هناك قتال شديد من على الجانبين، وقدم أبوه صاحب بيروت الذي كان قد ذهب لرؤية الآلة التي كانت قيد الإنشاء أمام كتاتارا، وذلك لدى سماعه بالأخبار، وكذلك فعل أخواه، وقدما من حيث كانا، وجاء جميع شعب البلاد مسرعاً، ثم تم الاتفاق بوجود بقاء السير بالين هناك لمدة شهر، ومعه مائة فارس، مع عدد مناسب من الجنود الرجالة، وتوجب أن يكون أخاه في الشهر التالي، وهو السير بلدوين الذي كان حكيماً جداً ونشيطاً، مع مائة فارس أيضاً، وأن يكون هناك في الشهر الثالث السير هيوج، الذي كان واحداً من أفضل الفرسان، وكان قوياً ومرضياً في جميع أنحاء العالم، وبما أنه تقرر وجوب وجود واحد من الأخوة هناك، كان بإمكان الآخرين الذهاب إلى حيث شاءوا، ولكن عليهم العودة كل منهم في شهره .

٦٦ : واستمر الحصار لمدة عام تقريباً (١٢٩) وفق هذه الطريقة، وكان هناك في كل يوم قتال واستخدام للسلاح، وكان فيليب دي نوفار قد أصيب بجراحة في إحدى المرات أمام باب السور، كما أصيب بجراحات خطيرة عديدة، من طعنات الرماح، ورميات النشاب، والحجارة، وطعن في أحد الأيام بسنان رمح خرق تماماً خلال ذراعه،

ونفذ في قميص سابغته وفي جسده، وبذلك انكسر الرمح على طرفه،  
وبقي القسم المكسور مع السنان في ذراعه، وصرخ الذين كانوا في  
الداخل قائلين: «مغنيكم قد مات، لقد قتل»، وأمسكه أعداؤه من  
وسطه، لكن مولاه وقاه وأنقذه بنشاط عظيم، ونظم في المساء مقطوعتي  
دوبيت على شكل أغنية، وغناها بصوت مرتفع، وبذلك عرف الذين  
كانوا في القلعة وتيقنوا أنه لم يموت .

٦٧ (١٥٠) وفيما يلي الشعر الذي نظمه السير فيليب دي نوفار،  
عندما جرح أثناء الحصار أمام قلعة ديودامور :

لقد جرحت، لكن شفتاي لا يمكن إغلاقهما بإحكام  
حول السير رينارد وجماعته -

الذين من أجله انزلقوا وغرقوا بالعار  
في داخل مالكروز Malcreuse، مأواه الأثير  
لكن إذا كان الخوف من أجل نفسه قد أقنع رينارد  
ما الذي فعله الإقطاعيون الآخرون التعساء ؟  
والسيرجنديه؟ لماذا يبعوا ؟ ما هو ربحهم؟  
مثل شياه جعلهم ييقون منتظرين  
بالنسبة لرينارد يمكنه أن يجلب محناً خيانية  
أكثر من غانثلون، الذي باع فرنسا خيانة وخساسة  
لقد ملأ وكره ليقترف الدنس  
مشعباً بأمل أن يحكم البلاد وأن يضرب .  
وعليهم صب هزواً كلمات سلام .

ياللعار، لخدمة خائن هكذا ضلوا !  
في الخارج، لخدمته ذاقوا الماء مبرحاً  
في الداخل، بهلوانيتهم أوصلتهم إلى حبل المشنقة .

٦٨ (١٥١) : وعانى الذين كانوا في قلعة ديودامور من المجاعة كثيراً (١٣٠)، حتى أنهم احتفلوا في عيد الفصح (١٣١) احتفالاً عظيماً على حمار ضئيل قد أمسكوه، وإلى هذا الحمار أشار فيليب دي نوفار في قصيدته عن رينارد، وقال بأنهم باركوا الحمل ذي الأذنين الكبيرتين وأكلوه في عيد الفصح، وهذا ما يمكن أن تجده فيها، وضغط السير أنسيو الذي كان يحاصر كنتارا على القلعة بشدة وعن قرب، حتى كان مذهلاً أن تصدق الذي فعله، ورمت الآلة التي كانت لديه هناك جميع الأسوار تقريباً، لكن الصخور كانت قوية جداً تعذر التسلق عليها، وتجاوزها، وتحمل الذين كانوا في داخلها مصاعب جمة وخسائر كبيرة، حتى أنهم ألقوا بأرديتهم وبأسلحتهم عندما هربوا خلال الطرقات ساعة مغادرتهم ميدان المعركة، ذلك أن ميدان المعركة كان على مسافة خمس عشرة مرحلة عن القلعة .

٦٩ : وحدث في إحدى الليالي أن ذهب فيليب دي نوفار مع السير أنسيو ليقوما بالحراسة، وسمعا حديث الذين كانوا داخل برج صغير مهدم، كان قد بقي من القلعة، وكان من دون ذلك هو على دراية بأوضاعهم، ولذلك نظم أغنية جاءت كما يلي :

حرس في الليلة الماضية حتى ظهور الصباح  
بصعوبة قرب الأسوار، وحيداً، ومن دون أحد قريب  
وسمعت من أعالي برج عويلهم واضحاً  
أولئك الذين في كنتارا، امتلأوا حزناً وأسى

توجه واحد من الجماعة لآخر بالحديث  
وقال: «وأسفي يا إلهي ما الذي سوف نفعل ؟  
ليلعن الرب رينارد، لما اقترفه بحقنا من خيانة  
ورسائل لاكستري المكتوبة الزائفة  
التي وصلت إلينا قبل الفجر» .  
« نحن فريسة الحزن وعميق الأسى »  
هذا ما أجابه به الآخر، وأنا أسمع بشكل واضح :  
«نحرس بالليل وفي النهار بدون توقف  
نحن نتعب، مع قليل من الطعام، وثيابنا رثة، وزادنا قليل  
نحن نعد لرامي الحجارة قذائفه للرمي  
نصيينا هو الألم، نحن نرمي، ونجر، وننجر :  
إذا كنا سنظل نعاني من هذا القدر طويلاً  
أتمنى أن يأخذك الموت هذه الليلة ويأخذني  
قبل حلول الفجر» .  
وسمعت آخر يقول: «يا رفاقي ويا آلي  
سوف تنهمر من أجلنا كثيراً من الدموع المريرة  
بعد قليل سنموت، أفراننا زلزلت ودمرت  
تحت الضربات من قاذفات الحجارة والآلات  
لقد دمروا أسوارنا، وأبراجنا، وبيوتنا أيضا .

كيف سنحمي أنفسنا، إذا هاجمونا من جديد؟  
وبات رجالنا وسلاحنا بندرة مأساوية  
لن تعطنا الأسوار المزيد من الضمان  
دعونا نهرب من هنا قبل الفجر» .  
«الفرن والطاحون دمرا وزالا من الوجود  
والبقاء هنا سيكون حماقة واضحة .  
كامن لنا بقصد الخيانة والخداع  
وكلاء ديودامور الذين جعلوا الصدق كذبا  
لقد سرقوا بخيانة مطلية بالسواد  
الملك، الذي أقسموا على تسليمنا  
إياه، ثم جعلونا نقاتل في نيقوسيا  
وكان ذلك موتاً لنا، ولهم أمان  
آه، أمل أن لا يروا الفجر مطلقاً»

«العون الموعود قدومه يوم عيد الفصح تأخر كثيراً،  
ما أخشاه أننا تعطلنا، وفقدنا الأمل .  
عندما رأينا الامبراطور للمرة الأولى، كان اليوم  
يوم أسى، ينبغي أن نطلب النعمة، أو ندفع لذلك غالياً»  
ثم تابع يقول: «هل يمكننا إيجادها، فهذا صحيح،

لكن قليلاً من النعمة سوف يعطونا، إذا ما التمسناه  
والأفضل بكثير هو أن نهرب إلى تركيا  
لكن الحراس هناك يراقبون عن قرب  
كل الليل حتى الفجر» .

عندما رأى جوفيان حالة رجاله بمثل هذه الحالة البائسة  
تغيرت نواياه، ومن ثم بدل خططه  
فخاطبهم وهو يتنهد قائلاً: «أيها السادة الأمائل، قد لا  
أجد لنفسي رسولاً، من هنا  
يتقدم بجرأة ويحمل رسالة ويتقدم بها

★★★

في سورية وقبرص ما يزال هناك  
من سوف يحزن لموتنا حزناً عظيماً جداً»  
وعند هذا انبلج ضوء الفجر .  
وعندما سمعت نواحيهم بكل وضوح  
عدت مسرعاً نحو سيرجنديتنا رسولاً  
ومن ثم أخبرتهم، وأنا جزلان مسرورا  
بأن الآلام والخلاف استبدا بكتناراء، بكل وضوح  
وبما أن واحداً من قادتي سألني التبيان



هكذا توليت، قص أخبار التعاسة

التي سمعتها، عندما وقعت، وأعلنت عن نفسها بصوت مرتفع

ثم أشرق في كل مكان ضوء الفجر

٧٠ (١٥٢) : وقد حدث في أثناء الحصار أن السيد الشاب صاحب قيسارية - الذي قتل ابنه في معركة الوكلاء الخمسة أمام نيقوسيا - قد وضع ومركز رجاله في المنطقة المجاورة فوق صخرة حادة كانت قريبة جداً من القلعة، وجعلهم يرمون من هناك خلال النهار وأثناء الليل، وكان لديه واحد من أبرج الرماة بالقوس العقارة، وكان قد أبصر السير جوفيان عندما كان يتجول في القلعة، وهكذا راقبه بشكل متواصل بكل تيقظ ونجح في قتله بوساطة نشابة، وكان ابن عمه السير وليم دي ريفت قد ذهب إلى أرمينيا طلباً للمساعدة، وقد توفي هناك، ثم أصبح قائداً كنتارا فيليب شينارت (١٣٢) Chenart الذي كان أخاً للسير جوفيان من خلال أمه، وكان شاباً متسرعاً وبلا خبرة، وأخفى الذين كانوا في الداخل خبر مقتل السير جوفيان، لكن رامي القوس العقارة كان متأكداً من قتله له .

٧١ : ولم يعد بإمكان الذين كانوا في القلعة التحمل أكثر، ولهذا أقاموا سلاماً، وافق عليه مولاي صاحب بيروت بترحيب من أجل ضمان سلامة الملك، ذلك أنه خشي أن يحمل في الليل إلى خارج القلعة ويودع في أحد الأماكن ومن ثم يرسل إلى أبوليا، وسلم الذين كانوا في الداخل أخيراً الملك، الذي كان ابن أخت لصاحب بيروت، وسلموا معه أخته والقلاع إليه، وأقسموا أنهم لن يقفوا ضده أو ضد أولاده، أو ضد الذين هم من حزبه بشكل مطلق ودائم، وأقسم (صاحب بيروت) وأولاده لجميع رجال حزبهم (لأن يأمر) (١٣٣)، بحفظ سلام مشرف معهم، وتم

الاتفاق أيضاً على أن تقوم أسرة السير جوفيان بمغادرة قبرص، بسبب أنه قتل القسطلان، لكن يتوجب الاحتفاظ بإقطاعياتهم (١٣٤)، وأن يرافقوا بأمن وسلام حتى مغادرتهم البلاد، وأبرم هذا السلام الراهب الاستباري الشجاع الذي اسمه الراهب وليم دي تينر *Teneres* (١٣٥)، وكان وشيخ الصلات بمولاي صاحب بيروت، وكان السرور عظيماً عندما خرج والمك من القلعة، وكانت البهجة عارمة، وقدمت هدايا كبيرة وأعطيات، ولم يحضر السير أنسيو، وفيليب دي نوفار، والفارس الذي هوجم، وكان اسمه تورينول، ولم يرغبوا أن يكونوا هناك، كما أنهم لم يتحدثوا قط مع أعدائهم المتقدم ذكرهم أعلاه، لكنهم قبلوا السلام، نزولاً عند إرادة مولاهم .

٧٢ - وبينما كان السلام قيد الإعداد ، أرسل فيليب ليسافر، وكان هكذا في لياسول داخل سفينة حيث توجب عليه الذهاب بمثابة رسول إلى بلاد ما وراء البحار، إلى البابا وإلى ملك فرنسا، وإلى ملك إنكلترا، وإلى ملوك إسبانيا الخمسة (١٣٦)، ليخبرهم، ثم يكرر إخبارهم، وليقدم شكوى ضد الشرور العظيمة والآثام التي اقترفتها الامبراطور فردريك والناس الذين كانوا في حاشيته في قبرص وفي سورية (١٣٧)، وما أن تم إبرام السلام حتى رغب فيليب في صنع أغنية منظومة تتعلق به، غير أن صاحب بيروت لم يرغب بذلك، لكن بعد شيء من التردد أذن بحكاية واقعة رينارد التي ذكر بها أسماء عدة وحوش، وقد أشار إلى صاحب بيروت تحت اسم زنغريم *Zengrim*، وإلى أولاده باسم ذئابه، وإلى السير أنسيو دي بري باسم الدب، وإلى نفسه باسم الديك شانتيكلير *Chanticleer*، وإلى السير تورينول باسم السنور تيمبرت *Timbert*، وجميع هؤلاء الوحوش هم من حزب زنغريم في حكايات رينارد، وأطلق على السير عموري (برلياس) اسم رينارد ، وعلى السير عموري (صاحب بيسان) اسم غرمبيرت الغرير، وعلى السير هيو اسم القرد، ولقد دعاهم

من قبل على هذه الشاكلة، كما تذكرون، وهؤلاء الوحوش هم حزب رينارد في حكايات حولهم أنفسهم .

٧٣ : وهذه هي القصيدة حول رينارد وتبيان كيف أن زنجريم قد هزمه :

ظل رينارد في حالة حرب لمدة طويلة جداً

أحرقت البلاد وأحدثت فيها الخراب

وقد قام بالكثير من المغامرات

جلبت له المرارة والآلام

ودنا رينارد مراراً من تلقي ضربة مميتة

عندما كمن له زنجريم الذئب وانتظره

وحاصره داخل مالكروز Malcreuse

وهو حصن قوي كان قيد استعمال رينارد

دون أن يكون لديه ما يأكله أو يملأ به الكأس

ووصل إلى حالة صعبة جداً

ولولا أن نبيلاً تولى المباحثات

لواجه رينارد منيته مع رفاقه

غير أن الرب الذي يرسل جميع التبريكات الطيبة

قضى بوجوب إنهاء هذا الصراع

وأن يتخلص رينارد من مأساه وآلامه .

ومع هذا لم يكن متأكداً من السلام

وظل موسوماً بالضعف والمرض .  
وكان رينارد، وغرمبيرت والقرد أيضاً  
هناك، ولم يكن من جماعة أخرى أحد :  
والذي أحصي مع رينارد في الداخل، مجرد ثلاثة  
فقد تخلى عنه رفاقه بالسلاح  
وعندما وضع السلم حداً لرعب الحرب  
هذا بحق وبكل تأكيد يمكن للمرء  
أن يسميه بأقذر أسماء الخيانة  
مرة واحدة فقط عانى رينارد من مثل هذه الجرائم  
بينما هو نفسه كذب أكثر من مائة مرة .  
وجماعته الثلاثة الذين دونت أسماءهم هنا  
لم يكونوا على وفاق بين بعضهم بعضاً ولا مع أحد،  
بل عقد سلامهم مع زنجريم لوحده  
ومع الذئاب الذين ينتمون فقط إليه ويعودون  
وهؤلاء الذئاب، كما بينت لك  
لم يحققوا كل ما أرادوا تحقيقه  
وعندما أرغموا بالقوة على الوصول إلى نهاية  
للصراع، رينارد لن يكون مطلقاً صديقهم .  
لأنه عندما لعب دور المعالج، كان هو السبب

في وقوعهم في مصيدة بين فكي الذئب  
وعندما رماهم في وكر الذئاب :  
كانوا سيتألمون كثيراً، ما لم يدفع لذلك غالياً .  
بالنسبة لهم أن ينشدوا التعويض لائق وصحيح  
الرب يمقتهم لأنهم لم يحبوا انساناً قط!  
ظل جالساً هناك مع مقاصد قتالية حادة،  
لم يطمع سلامه مع أي انسان .  
مولاي الدب، و تيمبرت السنور أيضاً،  
قد وعدا بضربه، و بإلقائه إلى الحضيض  
و فوق هذا، السير شانتيكلير الديك  
الذي هو على رقعة الشطرنج مثل الصخرة تماماً،  
مرارا مرّ خلال مملكته و اجتاز  
و غنى بصوت مرتفع في أغانيه عن مصائد الذئب  
و غنى بشعر منظوم لكل من أراد الإصغاء  
و حكى كيف جرى قذف جراء الذئب  
و أعاد السير شانتيكلير شحذ مهامه  
و لو أن أي بارون، هكذا أعلن  
سيتجرأ بالهجوم على رينارد و الانقراض عليه  
هو— شانتيكلير — سوف يساعده، و يضرب بشده

رينارد الآن في البلاط، كما يمكنك أن ترى،  
مبتهجاً، فخراً سوف ينال مع الاحترام .  
و من زنجريم اقترب كثيراً :  
و تطور به الحال حتى كاد أن يصبح ابن عمه  
و قدم التحية لأبناء الذئب واحداً تلو الآخر  
و عانق كل واحد منهم عندما التقاه .  
و عمل رينارد أعمالاً كثيرة حتى يثير البلاط،  
و كان يضحك متصنعا، و يؤدي حركات مبتذله  
و كان لدى توليه رواية حكاياته، غالباً ما كان يسمي  
و يعيد تكرار ذكر مجده و عاره :  
و كانت كلماته مليئة بالحرب و صوت القتال :  
و كان يهذبهم و يشذبهم، و يضيف جراحاً إلى الجراح .  
و ألقى الدب عليه نظرة ثابتة  
و نظر إليه السير تيمبرت السنور شزرا  
و تساءل ما الذي سيقترفه من جديد.  
و على سؤاله أجابه شانتيكليز قائلاً : «الآن سوف نرى  
فيما إذا كان السير رينارد سيجعل منا أضحاحي»!  
و تنبه رينارد المرتجف لهذا كله و لاحظته،  
و كان يخاف من الدب، الذي في أيام خلت

جعلته يرتعد خوفاً، و يشعر بالويل.  
و بتذكرة بسيطة تراه أخذ يرتعد خوفاً .  
و من ثم بدأ يتشاور مع ابن عمه غرمبيرت،  
و صرخ : «يا بن عمي، الويل لي، إنني على أبواب الموت» !  
وإزداد ارتفاع ضغطه، و تحول لون وجهه إلى أصفر فاقع:  
و كان مرضه المميت اسمه الرعب .  
و طلب رينارد مع أهل بيته و ابتغى الراحة  
و إلى جانبه و معه ذهب غرمبيرت الغرير  
و ذهب أيضاً القرد، أعني السير كوينترو  
و ذهب السير ريناردين النمر أيضاً  
و إلى هناك قدم مالبرانش و بيرسيهي  
و مثلهما هيرميلاين، زوجته النبيلة :  
لقد جاء وا فرادى وجماعات و اندفعوا إلى جانبه هائجين:  
«أخبرنا ياسيدي، ما الذي حل بك الآن من ويلات»؟  
و أجابهم قائلاً : «أنتم ترون حالي ، لذا لاتتوقفوا  
و اذهبوا الآن و أحضروا لي الكاهن بدون تأخير»!  
و عندما سمعت هذه المجموعة الخبيثة كلماته  
اعتقدت بدون أدنى شك أنه يقول الحقيقة،  
و أنه بشأن موته هو مرعوب تماما ،

و أن سيدهم الدنيوي سيكون ميتاً.  
لكن هذا كله كان غشاً و خداعاً،  
و على الانسان أن يجرس نفسه بعناية أعظم  
ذلك أننا نفتقر بلا إرادة إلى ذلك الفن الذي يتقنه  
و نحن نعلم، حتى يقلع كل ريشنا من جلدنا  
بأن رينارد مخادع حتى بقلعه لريشه  
فهو ماهر جداً بكل نوع من أنواع الغش و السرقة،  
وهو يفكر و يمعن النظر بكل الشرور  
و يبدع مؤامرة ذات خداع هائل،  
لأنه بتظاهره بالاعتراف  
سينال المغفرة، و يطلب المسامحة  
من جميع الناس، بما أنه على وشك الموت  
و من الآخرين الذين يخشون العار أو الخطأ  
لأبل حتى من الدب الذي ألقاه أرضاً و داس عليه  
والذي سدد إليه ما يستحقه و بشكل عادل  
أما بالنسبة لتيمبرت و لشانتيكلير أيضاً  
نحن نريد أذاه عن قصد معلن، و نبغي سقوطه  
وهو يعرف تمام المعرفة أنه مالم يستل سخيمة نفسيهما  
طريقه في الحياة لن يكون سليماً و لالينا

بل سيستهي كثيراً الوقت والمكان  
فعندما سيتمكن ثانية من الاستقرار،  
سوف يعيد إشعال النار عن طواعية  
وذلك عندما سيحصل على الوقت والمكان حسب رغبته .  
وهكذا كان ما قاله: «أحضروا لي الكاهن»  
كما وطلب إحضار جسد ربنا  
وحضر المخلص الآن، لكن كما يمكنك أن ترى  
كان السير رينارد معلماً متمرساً بكل أنواع الخداع  
والتف صعبه من حوله تماماً ودعموه  
وشرع يتكلم حتى يجعل اعترافه بهيجاً :  
«أيها المولى، إنني بحضورك المقدس أعترف -  
فمنك يأتي كل نوع من أنواع الخير -  
إنني أعترف، وأقول بأن زنجريم  
لم أحبه قط، ولن أحبه مطلقاً  
وعندما أديت اليمين منذ زمن مضى، الرب يعلم  
إذا حدث وتفوقت وامتلكت السيادة  
ليس بنيتي أن أقدم له معروفاً ثانية  
ولن أضفي شيئاً من المعروف على أي من رفاقه  
على أنني أكره بمرارة أبناءه الذئاب وأمقتهم

وكذلك أسرته من أساساتها،  
ولقد أبديت لهم هذا فيما تقدم من أيام  
لكن أرجوك لاتستثري هذه السنة.  
فأنا واقع في بؤرة من الشر، وجلب ذلك لي العار،  
وقد أخفقت بكل شيء آخر، وأعلن عن توبتي  
سيدي الآن زنجريم، الذي سيكون  
العرب والأسف هما مصري .  
وها هنا الآن أيها السادة سيادتي :  
وهنا في الحقيقة إخفاق خداعي وسقوطه .  
ومعه أولاده الذئاب الصغار في الأمام وفي الخلف .  
ويبدو كأننا لم أعرفهم أنا قط .  
وبما أنني منذ الآن لن أستطيع إيذاءهم أكثر  
من أجل الرب، أتخلى وأغادر، لأن قواي الآن لاشيء  
وشيء واحد لدي، يعطيني راحة كبرى  
هو أنهم سوف يحافظون على سلمهم معي بشكل جيد  
لكن هل لدي الوقت والمكان وفقاً لرغبتني،  
فقد أحرقت نفسي معهم بنار ملتبهة  
وأنا بالنسبة لكثيرين قد اقترفت آثاماً بغیضة  
ومع هذا إنني لم أفلح بآثامي كلها وأحقق رغبتني

ويبقى الرب الذي يعرف قلبي وتفكيري الباطني،  
يمكن أن يغفر لي الآثام التي اقترفتها .

بحق الرب، ضربني مولاي الدب ورماني أرضاً  
وترك على ظهري العار والشنار مشهوران .

ولئن كنت قد اقترفت بحق تيمبرت كثيراً من الأذى  
هو اقترف أولاً بحقي كثيراً من الشرور  
ولو جاء شانتكلير إلى هنا بناء على أمرك :

وبحق الرب، لقد سار راكباً خلال أرضي كما يريد :

ولأن أكون متصالحاً معه، سأكون مبتهجاً،

لأن كل ما أعطاه لي كان مجرد آلام كبيرة

إنني أسأحهم، دعهم الآن يتولون مسأحتي

بهاتين اليدين اللتان صفتنا هنا كما ترى .

وإذا لم يكن لدي قوة غير ما سلف وأعطيتني

بناء عليه لن أستطيع إثارة الحرب عليهم أكثر

ومع هذا لئن لم أستطع إمساكهم بأية حيلة

لقد جعلتهم يعرفونها برضا من كل قلبي»

وبسرعة أرسلوا رسالة إلى الديك، يقولون فيها

بوجوب قدومه لتقديم المسأحة على الفور .

ورد الديك قائلاً: «باسم الرب، دعوه يعرف

أنه إذا مات، فهو معفى من كل لوم  
وعلى كل حال، إنني أعرف جيداً علته  
فهي لأشياء سوى خداع دنيء، وشرور .  
ولو أن مولاي زنجريم حكياً،  
لتعامل معه بالطريقة نفسها والخداع  
فقد اعتاد البازيار الاغريقي مع النسر أنه :  
إذا ما أطعمه مباشرة وبدون تمييز  
سوف يغدو متكبراً وتمعجراً مع الجميع،  
دعه أولاً يقدم إجابة للنداء .  
ويؤلني كثيراً أنه بسلوكه الشرير  
قد نجا عشرات المرات من المصيدة .  
أشياء غريبة أثناء عيد الفصح بناء على أوامره  
قد اقترفت، عندما تجرأ وبارك وقدس  
ومن ثم التهم الحمل ذي الأذنين الطويلتين .  
وعلى هذا ليس هناك خطر، ولاسبب للخوف  
والآن إذا لم نراقبه ونرصده بأعين حذره  
سوف يغشنا ثانية بخداعه»  
ولم يتمكن المراسل أن يجعله يقول أكثر،  
وهكذا عاد إلى رينارد بدون تأخير

وحكى له كلمة كلمة  
الجواب، والرأي الذي سمعه .  
وبناء عليه قال رينارد للشهاس :  
«إنني سأموت الليلة، أو عند انبلاج الفجر .  
وإذا ما تمكنت من النجاة من هذا الانهيار،  
يمكنني تحقيق الراحة والهدوء .  
لقد سوحت وسوف أسامح الجميع، الرب يعرف  
الوقت الذي سوف أبعث فيه من هذه البقعة .  
حللني يا سيدي، أرجوك باسم الرب،  
لقد أذنت كثيراً من الذنوب، يا لعاري  
حتى لو أنني عشت مائة سنة  
لن أستطيع إلقاءهم جميعاً في أذنيك»  
وأعطاه الراهب التحليل الآن والغفران  
لكن ذلك كان على شرط فقط  
أن يأتي إليه إذا ما عاد صحيحاً .  
وأجابه قائلاً: «سأفعل، وسأذهب إلى آخر أيضاً  
هو الذي سوف يتألم كثيراً عندما سيسمع،  
لقد وعدت، ولسوف أذهب، وأقول كلمة» .  
وبناء عليه تنازل الراهب وأعطاه الغفران

وحصل على ذلك في ساعة مرض  
وغادر يسوع، وبقي رينارد حيث هو  
مليئاً بالخداع وبفن الشر .  
فللشيطان في داخله جزء جبار :  
وفيه شرور عظيمة تحت جلده،  
لقد كان وسيكون، مادام حياً  
خائناً غارقاً في مفاسد دنسة  
حتى تذهب روحه الدنيئة والتعيسة .

٧٤ ( ١٥٤ ) : بعد عقد المصالحة أعطى صاحب بيروت الجيد  
وأولاده كثيراً من الحاجيات الجيدة، والتشريفات العظيمة، ومبالغ كبيرة،  
إلى أعدائهم، وأعطوهم خيولاً وملابساً، وأسلحة، وهدايا أخرى، وطلبوا  
صحبتهم وقد ارتدوا الملابس نفسها، وتمتعوا نفوسهم مع بعضهم، ولم  
يبقوا في نفوسهم شيئاً مما كان، غير أن أعداءهم اهتموا برغباتهم المجنونة  
واعتنوا بها، وما لبثوا أن أظهروا ما في نفوسهم حالما كانوا قادرين على  
ذلك، وكان فيليب قد توقع بشكل جيد وصوّر في قصيدته عن رينارد ما  
حدث فيما بعد، وتعهد عموري برلياس بقصد شديد وبذل جهوداً كبيرة  
لأن يكون بصحبة صاحب بيروت وأولاده وللمشاركة باحتفالاتهم، ودعا  
السير بالين بأخيه، وغالباً ما تحدث عن المعركة التي وقعت وعن  
الحصار، ولهذا لم يوثق به، لأنه أن يتذكر الانسان عاره بشكل كبير في  
ذلك دناءة وانحطاط .

٧٥ : وفي أحد الأيام كان الحضور في البلاط كثيفاً، وكان السير  
عموري برلياس وصحبه كلهم هناك بين الحضور ، وكان آخر من دخل  
إلى البلاط معاً السير آنسيو دي بري وفيليب دي نوفار، وتورينول، ونظر

السير عموري متمعناً وعن قرب، فوجدهم يتشاورون مع بعضهم، ولذلك استبد به خوف عظيم، وبناء عليه قال بأنه مريض جداً، وأنه يحتضر، وبناء عليه خرج من البلاط هو ورجاله، وتوجه إلى بيته، واعترف هناك فوراً وتناول القديس قائلاً إنه قد سامح جميع الناس، وبوده أن يطلب رحمة الرجال الثلاثة المذكورة أسوأهم أعلاه، لأنه يخاف منهم خوفاً عظيماً، لأنهم لم يكونوا حضوراً أثناء المصالحة، ولم يقسموا على قبول المصالحة حتى الآن، وقد بعث برجال دين إليهم يلتمسون منهم القدوم إليه، وهم لم يرغبوا بالذهاب، لكنهم ردوا عليه أنه إذا مات سوف يكون مسامحاً من قبلهم، وقد حدث هذا قبل نظم القصيدة المذكورة من قبل، ولهذا السبب ذكر فيليب هذه القضية في القصيدة .

٧٦ ( ١٥٦ ) : وأرسل السير عموري وحزبه رسالة إلى الامبراطور - كما قيل - حدثه فيها عما وقع، وبعثوا بأعداء كثيرة بشأن المصالحة التي صنعت، وبعثوا إليه يخبروه أنهم ما يزالون يملكون لإقطاعاتهم، وفي حوزتهم جزء كبير من البلاد، وأنه إذا ما أرسل إليهم قوة صغيرة سوف يتولون ثمانية إخضاع أولئك الذين كانوا هم أعداءه وأعداءهم، وقد قيل بأنهم راسلوه مراراً، وقد وجدوا في النهاية الذي نشدوه ( ١٣٨ ) .

٧٧ ( ١٥٨ ) : وحدث ذلك في سنة ١٢٣١ أنه عندما تصالح الامبراطور فردريك مع الكنيسة واسترد جميع ما فقدته من أبوليا ( ١٣٩ ) ، أن قام هذا الامبراطور، أي فردريك ، الذي كره سورية ( ١٤٠ ) وقبرص كراهية كبيرة، فأرسل إلى قبرص وسورية جيشاً كبيراً من باروناته من أبوليا وصقلية، مع جميع الذين كرههم كراهية كبيرة وخاف منهم، وقد قيل توفر في هذا الجيش ستمائة فارس بدون نقص، ومائة من السادة الخيالة، وسبعائة من الجنود الرجالة، وثلاثة آلاف من البحارة المسلحين، وأسطول كبير وجيد من السفن، وسفن النقل، وكذلك اثنين وثلاثين من الغلايين، وكان قائد هذا الجيش هو رتشار فيلنغر، الذي كان مارشال

الامبراطورية (١٤١)، وسمع مولاي صاحب بيروت بهذه الأخبار، وكان آنذاك في عكا (١٤٢)، وقد سمع بقدم هؤلاء الرجال من رجال سفن الاستبارية والتوتون التي قدمت إلى عكا (١٤٣)، فبادر لدى سماعه بذلك فجمع قدر ما استطاع من الناس، وأخذ معه شطراً كبيراً من حاميته العسكرية، الأمر الذي أسف له فيما بعد .

٧٨ : وقدم إلى قبرص، واستدعى على الفور جميع الناس إلى حمل السلاح، وقد قدموا إلى لياسول، وكان أول القادمين ابنه السير بالين ومعه قواته (١٤٤)، وفي الساعة التي وصلوا فيها، وصل أسطول اللومبارد إلى قبرص إلى رأس غافاتا Gafata ، القائم قرب لياسول (١٤٥)، وكان الملك هنري الشاب ملك قبرص ومولاي صاحب بيروت على الطريق، وعندما سمع بالأخبار بادرا مسرعين إلى هناك، ولهذا عقرت خيول كثيرة، ومع ذلك عندما قدما مسرعين جداً، وعندما احتشدوا مع بعضهم، كان هناك عدد كبير من الناس على الخيول وعلى الأقدام، وقد انتظموا بصف رائع، وتوفر هناك من الأصدقاء ومن الأعداء حوالي الخمسمائة فارس، وكان هناك أيضاً أعداد كبيرة من السادة الخيالة والتوركبلية .

٧٩ : وخاف اللومبارد منهم، ولم يتجرأوا على النزول، ولأن الشاطئ كان مدافعاً عنه بشكل جيد لم يتمكنوا من السيطرة لاعلى الأرض ولا على الماء، وجرى تبادل العديد من الرسائل بين الطرفين (١٤٦)، وحافظ مولاي صاحب بيروت دوماً على الاستقامة أمامهم، وتكلم بتواضع كبير، حتى أن رفاقه غضبوا من ذلك، وتشاور اللومبارد والسير عموري برلياس مراراً فيما بينهم، وكان ذلك في أثناء الليل، وكان ذلك معروفاً بشكل جيد، وكان من الممكن إخضاعه للاستجواب بسبب ذلك لو توفرت الرغبة بذلك، لكن السيد النبيل لم يسمح بذلك، وقال من الممكن أنه كان يتحدث خيراً، أو أنه كان يتحدث شراً، وأنه رغب

باقتراف الشر، فإنه لن يفعل ذلك حتى يتضح تماماً أنه حثت يمينه وخرق المصالحة، لأنه (أي الإيليني) إذا ما أراد اتخاذ إجراء بناء على معطيات هي كلمات فقط، فسيقال بأنه حثت يمينه، لأنه هنالك فرق كبير بين الكلام وبين الأفاعيل، ولم يستطيعوا زعزعتة عن قراره، ولهذا تقرر بالفعل وجوب قتل (برلياس) في خيمته في الليل أثناء وجوده في فراشه، وخشي صاحب بيروت من هذا الأمر، ولهذا أخذه إلى بيته ليقيم، وأمر بحراسته هناك بشكل جيد .

٨٠ ( ١٥٩ ) : وعرف اللومبارد أنهم لن يتمكنوا من النزول إلى اليابسة بسلام، لهذا انتظروا وقتاً مناسباً ( ١٤٧ )، وغادروا من هناك خلال الليل وذهبوا مباشرة إلى بيروت، وأخذوا المدينة على حين غرة، واستسلم الأسقف إليهم، وكأنه كاهن جبان ( ١٤٨ )، وحاصروا القلعة ( ١٤٩ )، وشددوا الحصار عليها عن قرب، ووجدوها تفتقر إلى الرجال، لأن صاحب بيروت لم يتخذ حذره تجاه هذا، وحمل الجزء الأكبر من الحامية العسكرية إلى قبرص، وقد عرف اللومبارد بهذا عندما كانوا في قبرص، ولهذا السبب قرروا الذهاب إلى بيروت، وكانت القلعة مزودة باللحوم بشكل جيد، وبالخمور وبالسلح، لكن عدد الرجال فيها كان قليلاً، وكان لدى اللومبارد العديد من الجنود والمهندسين، والخشب الصالح للبناء والحديد والرصاص، وكل ما هو ضروري لصناعة الآلات الحربية، ولهذا صنعوا من الآلات ما هو كبير وما هو صغير، وهاجمت هذه الآلات القلعة بشدة .

٨١ : وكان معهم خائن اسمه دنس، وكان قائداً عسكرياً لدى صاحب بيروت، وسيداً لكل القلعة، ويعرف تمام المعرفة نقاط الضعف عند الناس، وقد بين لهم كيف يركزون الآلات حيث يكون هناك ضرراً أعظم، وقد نال بالنهاية جزاءً وافياً، حيث علق من رقبتة وشنق بمثابة خائن، وأطبق المحاصرون على القلعة، لأن المدافعين عنها كانوا قلة، وتم

الاستيلاء على خندق القلعة، الذي كان واحداً من أجمل الخنادق في العالم، وأقاموا عند قاعدة الخندق شارعاً مغطى تماماً مع برج عظيم من الخشب، ولغموا القلعة في كثير من الأماكن، وبنى اللومبارد خارج القلعة في مكان يدعى كوفور Chaufor قلعة من الحجارة، فوقها قلعة من الخشب كانت أعلى من القلعة وقد كشفتها كلها، وسببت أضراراً عظيمة للذين كانوا في الداخل، وهذه الخطة نفسها جرى إرسالها من قبرص، مع نصيحة بوجود أن يفعلوا ذلك، لأن الخائن الذي بعثها كان يعرف أن صاحب بيروت كان يخشى كثيراً من هذا المكان المرتفع (١٥٠).

٨٢ ( ١٦٠ ) : ووصلت الأخبار إلى قبرص، بأن القلعة تحت الحصار، وأن الشتاء كان قاسياً، وجاء صاحب بيروت إلى البلاط، ومثل أمام الملك هنري الشاب، الذي كان مولاه وكان بالوقت نفسه ابن أخته، وامتلاً البلاط بعدد كبير من الناس، من أصدقاء وأعداء، ونهض ووقف على قدميه - كان من عادته أثناء الجلوس وضع ساقيه على بعضهما - ولأنه كان يعرف ما الذي عليه فعله، فقد تكلم بصوت مرتفع، وتوجه نحو هدفه بقوله: « سيدي، إنني لم أحاول قط أن أمتن عليك من أجل خدمات أسرتي نحو أبيك ونحوك، والآن لا بد أنني الآن محتاج لأن أفعل ذلك، ولسوف أقارن نفسي - مع أنني قد لا أكون جديراً بذلك - مع وليم أوف أورانج، الذي عندما احتاج إلى نجدة حفيده في كانديا - Can-dia، امتن على مولاه الملك لويس من أجل الخدمات التي قدمها له» ( ١٥١ ) .

٨٣ : «ويمكنني أن أقول، ولدي الكثير من الضمانات من أجل ذلك والشواهد أنه بوساطتي وبوساطة أسرتي صار والدك سيداً وتملك البلاد، ولولا أننا أيدناه لكان قد حرم من الميراث أو مات، وعندما نزل به قضاء الله، كان عمرك تسعة أشهر فقط، وقد رعيناك، أنت وبلادك - شكراً للرب - حتى هذا اليوم، ولم نتخل عنك أبداً عن طواعية، ولم

نترك لوحدك لأن دوق النمسا أراد حرمانك من ميراثك (١٥٢)، وكنت مرتين في وضع سيء أو أسوأ، ولو رغبتنا أن نتخلى عنك وعن مملكة قبرص، وعن مملكة سورية لأمر الامبراطور بإعطائنا ملكية بيروت بسلام» .

٨٤ : « والذي حدث الآن أن اللومبارد قد استولوا على مدينتي، وهم يحاصرون قلعتي ويطوقونها عن قرب، وهي مهددة بالفقدان، وبذلك نكون أنفسنا وجميع رجالنا السوريين قد جردنا من أملاكنا، وبناء عليه أتوسل إليك، فأستحلفك بالرب وبشرفك، ومن أجل خدماتنا الكبرى، ولأننا من دم واحد، وقد تغذينا من أرض أم واحدة، وأرجو منك أن تأتي معنا، كما ألتمس الشيء نفسه من الآخرين الذين هم هنا بين الحضور، بحكم أنهم أخواني وأصدقائي المقربين، وأتمنى أن تقوموا شخصياً مع قواتكم بالذهاب معي للتفريغ عن قلعتي»، وهنا توقف صاحب بيروت عن الكلام، وجثا وكأنه يريد أن يقبل قدمي الملك، فانتصب الملك واقفاً على قدميه، وجثا الآخرون جميعاً، وقال الملك، وقال الآخرون كلهم أنهم يوافقون عن طواعية، وأنهم يضعون أجسادهم وما يملكون تحت تصرفه وفي خدمته (١٥٣)، وشكرهم صاحب بيروت كثيراً، ثم انتصب واقفاً هو وجميع الآخرين على أقدامهم، لأنهم كانوا ما يزالون جاثين على أقدامهم .

### كيف قدم صاحب بيروت ومعه القبارصة من نيقوسيا إلى فيياغوستا للعبور إلى سورية

٨٥ ( ١٦١ ) : وامت الرحلة بدون إبطاء، وحدث هذا في حوالي موعد عيد الميلاد ( ١٢٣١ )، وبسرعة وصلوا إلى ميناء فيياغوستا، وكانت الأحوال الجوية سيئة جداً، وقاسية إلى أبعد الحدود، حتى أنهم اجتازوا سهل فيياغوستا بكل صعوبة وفقدوا أشياء كثيرة على الطريق، ومكثوا مدة طويلة في الميناء بسبب سوء الأحوال الجوية، وانطلقوا أخيراً

لدى انتهاء موسم الاضطراب، ومع موعد تحول القمر ( ١٥٤ )، ولم يدعوا ولاقائداً واحداً في قبرص، وتكلم الناس حول هذا كثيراً، وأعلم فيليب دي نوفار صاحب بيروت بذلك، وقال له هناك كلام كثير حول هذا، وقد ردّ عليه بقوله: « إذا لم أبدأ الآن، أعرف تماماً أن القلعة ستفقد وسيتبع ذلك خسارة البلاد كلها، ولئن منحني الرب نعمة العبور، كل شيء سوف يتم استرداده، وسيكون هناك مجد عظيم، وإذا قدر الرب أن أموت، ليكن ذلك على الطريق، لأنني أفضل أن أموت قبل أن أعرف خسارتي، وليس بعد ذلك، وأفضل ذلك دوماً - بقضاء الرب ورضاه - على أن يحدث في أيامي فقدان لأرضي أو لبلاد مولاي» .

٨٦: « ويلومني بعضهم لعدم تركي قائداً واحداً في قبرص، سوف أخبرك لماذا ( ١٥٥ )، ربما قد أترك الشخص الذي يمكن أن يريح كل شيء حيث نحن الآن ذاهبون، ولقد حدث مراراً، أنه برجل نبيل واحد قد نيل كل شيء، وبفقدان رجل نبيل واحد تم خسران كل شيء، ونحن ذاهبون وفق طريقة، وإلى مكان يقتضي أن يكون كل واحد منا على ظهر السفن، وإذا ما انتصرنا، لن تحتاج قبرص إلى قادة، وإذا ما خسرننا، سينتهي كل شيء معنا، والقائد الذي سيكون في قبرص، سيصمد هناك لوقت قصير، ولسوف يهلك بعد ذلك، لأنني لا أعرف مكاناً في كل العالم المسيحي يمكنه أن يجد فيه ملاذاً، ولهذا السبب لا أرغب ببقاء واحد من أسرتي أو ممن يحمل اسم إيبيلين، وإذا ما انتصرنا فكل واحد سينال نصيبه في المجد والمرباح، وإذا ما خسرننا سوف نموت جميعاً في سبيل الرب، وفي سبيل حقوقنا في أملاكنا، فهنا ولد معظم أقربائي، وهنا سوف يموتون» .

٨٧: وأصغى فيليب دي نوفار جيداً، وبرغبة لهذا التعليل، وتركه وابتعد عنه وكرر كل ما سمعه لكثير من الناس الذين كانوا ينتظرونه في الخارج، وبناء عليه قال كل واحد وردد بأعلى صوته: «ما قاله صواب،

هذا الرجل النبيل، دعونا نذهب في سبيل الرب»، وحاول الأعداء الذين سميتهم من قبل ( ١٥٦ )، وهم الذين كانوا معهم تحت غطاء المصالحة والحب، وسعوا جاهدين بوساطة الخداع تسبب التأخير، وفكروا بالاعتصام في قلعة كاستري Castrie التي عادت ملكيتها للداوية، وغالباً ما روي هذا لصاحب بيروت، وأشير بضرورة إلقاء القبض عليهم، لكنه لم يرغب قط في أن يفعل ذلك، وقال دوماً بأنه يرغب بالانتظار حتى تظهر شرورهم وتبات معروفة وواضحة، ووقتها سوف يقدم مولانا العون للحق .

### كيف عبر القبارصة البحر بأمن وسلام ووصلوا إلى ميناء القسطلان في طرابلس

٨٨ ( ١٦٢ ) وغادر الجميع معاً أثناء الليل، ما بين أصدقاء وأعداء، وكانت الأحوال الجوية سيئة والأمطار غزيرة، فهذا ما قضاه الرب، وقد ساقتهم الأحوال الجوية إلى ميناء القسطلان في طرابلس ( ١٥٧ )، وقد وصلوا إلى ذلك الميناء بأمن وسلام وهرب من هناك الأعداء الذين ذكرت أسماؤهم من قبل مع حاشيتهم، وكان تعدادهم ثمانين فارساً، وقد ذهبوا للانضمام إلى الحزب الآخر، أي إلى بيروت للإلتحاق باللومبارديين ( ١٥٨ )، وعبر معظم الجيش عن استيائه، وانزعج بعض الناس كثيراً، وخاف عدد كبير من الشعب بسبب ذلك، وأقام مولاي صاحب بيروت احتفالاً كبيراً مظهراً رضاه بالذي حدث، وقال بأنه الآن يشعر هو بالأمان وبأن رجال شعبة قد تخلصوا من الخونة وتحرروا منهم، وبين أنه يفضل أن يواجههم بالقتال، وأن يجدهم أمامه لاخلفه، لأنه كان يتتظر طوال الوقت الذي تبعوه فيه، أن يقوموا بضربه ما بين كتفيه، والآن بما أنهم غدروا تجاه مولاهم، وبما أنهم تخلوا عنه في الميدان، وكانوا حائنين للعهود نحوه ونحو رجاله، لم يعودوا هم القوم الذين كانوا بالضرورة يخشاهم، ولهذا فإنه يرى في هذا العمل مربحاً كبيراً له، وخسارة عظيمة

للحزب الآخر .

٨٩ : وانطلق الآن صاحب بيروت وجماعته عبر البر وأسطولهم عبر البحر، ووصلوا في اليوم الأول إلى البترون، وتلقوا هناك أضراراً بالغة لحقت بسفنهم، لأن الميناء كان سيئاً، وقد دفعتهم الأحوال المناخية السيئة وجرفتهم، ولهذا غرقت غالبية سفنهم أو جنحت، وكانت البقية في حالة سيئة جداً، ومع هذا انطلق الناس من هناك، وركبوا وساقوا وسط الأمطار والأحوال الجوية السيئة، وساروا خلال شعاب منزلة خطيرة، وعلى حواف وديان فائضة بالمياه على أطرافها، وعبروا ممر الكفارة، وبممر نهر الكلب ( ١٥٩ )، الذي كان خطيراً جداً حتى يمكن عبوره، وهكذا ناضلوا حتى وصلوا بالقوة والحكمة إلى نهر بيروت، وعبر الذين كانوا في قلعة بيروت عن سرور عظيم وأضاءوا إضاءات كبيرة عندما رأوهم، وكانوا بحاجة كبيرة للنجدة، لأن القلعة كانت قد لغمت إلى حد أنها أخذت تتساقط إلى قطع، وسببت لهم قلعة كوفور أضراراً هائلة ( ١٦٠ ) .

٩٠ ( ١٦٣ ) : وانتشرت الأخبار في أرجاء سورية بأن صاحب بيروت قد جاء للتفريغ عن قلعته، وما أن سمع بهذا ابن أخته صاحب قيسارية الشاب، وكان وقتذاك في عكا، حتى وعد بمنح إقطاعات، وقدم أعطيات كريمة، فحشد جيشاً بقدر ما استطاع، وقدم مسرعاً لتقديم العون إلى خاله وإلى أولاد خاله ( ١٦١ )، وجاء بطيريك القدس، وكذلك مقدما الداوية والاسبتارية، وصاحب صيدا، وقسطلان المملكة للتوسط للمصالحة ( ١٦٢ )، ولدى المرور من أمام صور كان هناك اشتباك فيما بين صاحب قيسارية والحامية العسكرية للمدينة، ذلك أن صاحب صيدا كان قد سلم صور إلى اللومبارد بناء على أوامر من الامبراطور ( ١٦٣ )، ودفعهم صاحب قيسارية حتى أدخلهم إلى قلب أبواب المدينة، ونظر إلى قدومه بسرور عظيم من قبل الجيش، وأن هذا القدوم مفيد جداً، وتحدث اللوردات الخمسة المتقدم ذكرهم عن السلام،

لكن ذلك لم يتحقق ( ١٦٤ )، واستمرت الأحوال الجوية السيئة لمدة طويلة، وكان في المعسكر عوز عظيم للأطعمة وللشعير، لهذا أكلت الخيول كلها تقريباً القصب فقط، وتوفر القليل من الخيام ، ذلك أن معظمها قد فقد في الأسطول الذي تحطم أمام البترون، وكان اللومبارد يشعرون بالراحة والاطمئنان، وتوفر لديهم الكثير من الأطعمة والحاجيات مع بيوت مريحة داخل المدينة .

٩١ ( ١٦٤ ) : وخرج اللومبارد في صباح أحد الأيام باكراً، وتقدموا على شكل صفوف قتالية، وزحفوا حتى طرف النهر، الذي كان عريضاً جداً هناك، ولولا أنه كان عريضاً إلى هذا الحد ما كانوا ليخرجوا من المدينة على هذا الشكل، ومكثوا طوال النهار هناك على هذه الشاكلة، وذلك حتى حلول الظلام، حيث أرغموا على العودة، وتحسنت أحوال المناخ، ومال نحو الهدوء، وانخفضت مياه النهر، وبناء عليه عبر جيش الملك هنري وجيش صاحب بيروت النهر، وزحفوا حتى وقفوا أمام مدينة بيروت، على شكل صفوف معبأة، وقد انتشروا حتى الخندق، وجرى هجوم ضعيف أقلع به الذين كانوا في المدينة، لكنهم ردوا بكل عنف وصدوا عائدين إلى داخل المدينة، ورتب الذين كانوا في داخل المدينة أنفسهم أمام الحصار، وتقاسموا مهام الدفاع، وتمركز الأعداء الذين تخلوا عن الملك وعن مولاي صاحب بيروت، والتحقوا بالحزب الآخر - أي اللومبارد - في أحد جوانب المدينة حيث كان هناك برج كبير، ولهذا السبب غالباً ما دعي هذا البرج فيما بعد باسم «برج الخونة»، وذلك صدوراً عن خيانة أولئك الذين تخلوا عن مولاهم في ميدان المعركة .

٩٢ : واتخذ اللومبارد احتياطات للحراسة كبيرة من جانب البر، وكذلك من جانب البحر، حتى لا يتمكن أحد من الدخول إلى القلعة، وأعدوا غلايينهم، وربطوهم بسلسلة عظيمة من الحديد، وصفوهم بشكل جيد جميعاً من حول القلعة في داخل البحر، وتركوا ممرأ واحداً

ضيقتهم الدخول منه والخروج، وفتش صاحب بيروت في كل ليلة عن رجال تحت السلاح، أمكنه أن يرسلهم سباحة إلى القلعة، وغطس بعضهم تحت الغلايين، وسبحوا عراة حتى دخلوا إلى القلعة حيث وجدوا هناك اللباس والسلاح والطعام بكميات عظيمة، فالحاجة توفرت في داخلها إلى الرجال فقط للقتال وإلى القادة، وكان عدد الذين عبروا إلى القلعة ليس كافياً حتى يتمكنوا من الدفاع عن القلعة، وبناء عليه أعد صاحب بيروت خطة في أن يقوم أحد المراكب خلال الليل بالعبور، ووضع في داخله واحداً من أولاده، الذي كان يدعى السير جون أوف فوغيا، وذلك للسبب الذي سمعته من قبل، وقد أصبح فيما بعد صاحب أرسوف (١٦٥)، وقسطلان مملكة القدس، وكان وكيلاً عدة مرات (١٦٦)، وكان حكيماً ولائقاً، وكان مع جون هذا مائة من الرجال المسلحين، وفرساناً وسيرجندية، وسادة، وكانوا جميعاً من آل البيت الإيبليني وأتباعه.

٩٣ : وغضب ابنه الأكبر بالين غضباً شديداً، لأنه كان أسن من أخوانه، ووجه النقد لأبيه لأنه لم يدعه يذهب، وقال بأنه الوريث ( ولي العهد) وهناك سبب عظيم بالنسبة له لأن يذهب هو وليس الآخر، وغالباً ما عرض السير بلدوين نفسه وكذلك فعل جميع الآخرين، وكانوا غضاباً جداً لأنه لم يرغب بارسالهم، وقد رد عليهم بأنه يحتاجهم أكثر في الخارج وليس في الداخل، لأنه كان ينتظر المعركة من يوم إلى يوم، وهكذا جعلهم يهدأون، وما أن علم الأتباع الآخرون في الجيش بخطة العبور حتى بادروا إلى هناك متسابقين، وكانوا من الكثرة بمكان إلى حد أن المركب طفا بصعوبة، وأمر صاحب بيروت هؤلاء جميعاً بالمغادرة، وشكرهم شكراً عظيماً، وكان أفراد أسرته والغرباء مرعوبين جداً من العبور بين الغلايين والدخول إلى القلعة، ومن ثم تولي الدفاع عنها، ووضح في هذه القضية مثلما وضح في قضايا أخرى أن ما من إنسان

أحب شعبه مثلما فعلوا، وكان المركب مليئاً بالناس حتى أن الماء وصل إلى حوافه، وعندما وصلوا إلى مدخل الطريق الضيق الذي ذهب اللومبارد من خلاله إلى غلايينهم، لاحظهم الذين كانوا في الغلايين وعرفوهم، فأصدروا صرخات مدوية، ووجهوا نحوهم رميات كثيرة .

٩٤ : وبفضل الرب اجتازوا الممر، ونجوا من الغلايين، ووصلوا إلى صخرة تحت القلعة، ونجوا من الغلايين، ولم يعرف الذين كانوا في القلعة شيئاً عن قدومهم، ورموا عليهم بالحراب، وأمطروهم بالنشاب، لذلك عانوا كثيراً، لكنهم في النهاية عرفوهم واستقبلوهم بفرح عظيم، مع أنوار هائلة، وكانوا عندما صدرت الأصوات العالية من الغلايين وقت عبورهم من بينها، ألقى صاحب بيروت بنفسه على الأرض على شكل صليب باتجاه الشرق، وصرخ : رحمة يارب، وعندما رأى الأنوار على القلعة، وشارات دخولهم، قدم بتواضع شكره للرب، وفعل جميع الذين كانوا في الجيش مثلما فعل، وبعدما دخل ابن صاحب بيروت إلى القلعة ومعه عدد كبير من الرجال الجيدين، شرعوا بالدفاع عن أنفسهم بفعالية أعظم، وحفروا ممرات لغم مضادة للغامي العدو وأعادوا الاستيلاء على الخندق بالقوة، وأحرقوا الشارع الذي صنعه اللومبارد وغطوا به الخندق، وبعد هذا قام الذين كانوا في القلعة بأعمال انقضاض شجاعة، وربحوا أشياء كثيرة من الذين كانوا بالخارج، وأحرقوا عدة آلات حصار .

٩٥ ( ١٦٥ ) : ثم تيقن صاحب بيروت وعرف أن قلعته باتت في وضع دفاعي جيد، لكنه لم يكن قادراً مع الرجال الذين كانوا بصحبته على رفع الحصار، وإنزال الهزيمة بأعدائه، الذين كانوا متفوقين عشرة لواحد، ولم يكن يخشى عددهم، وكان راغباً في قتالهم، غير أنهم كانوا داخل المدينة التي كانت محصنة بشكل جيد ولها أسوار ممتازة، وكانت لديهم السيادة على البحر، لذلك فكر في قرارة نفسه بالذهاب إلى عكا

ومن ثم تأمين عدد كبير من الجنود الرجالة مع أسطول كبير، حيث لم يكن لديه أسطول، كذلك بعث بابنه السير بالين إلى طرابلس مع الملك الشاب هنري، وفوضه تماماً للترتيب لزواج وعقده فيما بين أخت الملك وابن الأمير (١٦٧)، وبإعطائه إقطاعات كبيرة في قبرص وقت الزواج، وذلك في سبيل أن يقوم الأمير بمساعدتهم بفرسان وبسفن وبرجال تحت السلاح، وكان الحديث حول هذا الزواج قد بدأ منذ زمن طويل مضى، وهكذا نفذ ما فكر به، لكنه جعل الذين في القلعة يعرفون بذلك حتى لا يضطربوا لذهابه، وأنه يمكن أن يعود في أقرب وقت ويجلب معه خلاصهم، وأجابوه بأن عليه الاحتياط أثناء ذهابه باسم الرب وليكن مطمئناً أنهم سوف يدافعون عن أنفسهم بشكل جيد بعون مولانا وعون أنفسهم، وهكذا فعلوا .

٩٦ ( ١٦٦ ) : وعندما غادر مولاي صاحب بيروت، وترك الحصار، انطلق ابنه السير بالين إلى طرابلس، وذهب معه السير وليم فيزكونت (١٦٨)، الذي كان رجلاً عاقلاً، وبناء على الرأي الشخصي لمولاي صاحب بيروت، كان هو الذي بدأ المباحثات من أجل هذا الزواج، وكان قدولد في طرابلس، وفيليب دي نوفار، الذي لم يفارق قط (بالين) ذهب إلى هناك، كما فعل آخرون كثير، وكانت العوائق التي اجتازوها والممرات الصعبة كثيرة، وكذلك عبروا كثيراً من الأنهار العريضة، وقد مروا أمام جبلة، التي عادت بملكيتها إلى الحزب الآخر، وزحف الجنود طوال الليل خلال الجبال، ومع هذا فبفضل الرب شقوا طريقهم، ووصلوا إلى طرابلس، حيث عسكروا خارج المدينة في بيت الداوية، الذي دعي باسم مونتكوكو Montquocu، واحتفى بهم أمير طرابلس وأولاده كثيراً، وكان ذلك في البداية، وتباحثوا في كل يوم حول الشروط وحول موثيق الزواج، وأيضاً حول المساعدة التي طلبها صاحب بيروت .

٩٧ ( ١٦٧ ) : وبات معروفاً في ذلك الحين في طرابلس أن جيش

القبارصة قدغادر بيروت، حيث توفر عدد كبير من الناس قد اعتقدوا بأن كل شيء قد ضاع، وهكذا بردت حرارة مباحثات الزواج بشكل ملحوظ غير أنها استمرت، وركب السير بالين في أحد الأيام ومعه جماعته وساروا نحو «تلة الحجاج» (١٦٩)، لمقابلة الذين كانوا يتولون أعمال الإعداد للزواج، ولدى عودتهم وجدوا باب مونتكوكو Mont- quocu مغلقاً في وجوههم، وقال رجال الداوية لهم بأن سبب هذا تجنب التعرض للاهانة من قبل الناس المؤيدين للامبراطور، وبعث السير بالين رسالة طلب فيها المأوى في بيت فرسان الاستبارية، وكذلك من البوليو Beaulieu الذين كانوا رهباناً سسترشانيين (١٧٠)، وأيضاً من الذين شغلوا تلة الحجاج، التي عادت ملكيتها إلى أسقف بيت لحم، وقد ردت كل فئة من هؤلاء مثلما جاء ردّ الداوية، وكان في طرابلس فارساً شغل وظيفة نائب أسقف طرابلس آنذاك، وقد تولى إسكانهم في حظيرة للأبقار عادت ملكيتها لكنيسة الأسقف المذكور، وكانت تعرف باسم مخزن الأسقف، وكانت قائمة خارج باب طرابلس، وجرى إعداد البيت للسير بالين وتنظيفه وفرشه بقدر الممكن .

٩٨ : وحدث الآن أن مقدم اللومبارد، كان يعرف تماماً سبب وجود السير بالين أمام طرابلس، فصنع رسائل مزيفة كأنها مرسلّة من الامبراطور، وكتبت هذه الرسائل في صور على رقّ إسلامي، وقد ختمت بختم الامبراطورالذي كان لديه، وجاء في هذه الرسائل بعد تقديم أعلى أنواع التحيات، أنه يرجو من أمير طرابلس وأولاده بحكم كونهم أقرباء أعزاء، ورجالاً مخلصين، أن لا يمنحوا الملجأ إلى أعدائه وأن لا يقدموا أية قوة أو أي عون، وبعث الأمير وأولاده هذه الرسائل إلى فيليب دي نوفار، مع مذكرة أخرى مكتوبة جاء فيها كلمات قالت في تراكييها: «الأناس الطيبون لا يميلون إلى الشر»، وجاء في نهاية هذه المذكرة ملاحظة فيها رجاء لفيليب دي نوفار أن يري هذه الرسائل إلى السير بالين ورجاله،

وأن يبين عذرهم، وكان قد حدث أن قام أمير طرابلس فيما مضى بمنح إقطاع إلى فيليب المذكور، وقد منحه إياه بمبادرة منه وكرم، ذلك أنه كان كريماً مع كل إنسان، وقد أحبه فيليب وقدره عالياً بمبادرته نحوه، غير أنه لم يرغب بالاحتفاظ بالاقطاع، ولا الخدمة من أجله، ولم يكن لهذا معجباً بما طلب منه، ومع هذا قرأ الرسائل لمولاه وأخبره بجميع هذه الأشياء، وقام بدون معرفة مولاه بنظم مقطوعة بسيطة وبعث بها إلى الأمير هي التالية :

أيها الناس الأشرار الموسومون بالجبن

أنا لن أقبل به، مهما كان الثمن

وأن يقول الناس لا، عندما يتحدثون عنكم ...

٩٩ ( ١٦٨ ) : وعانى السير بالين وصحبه في مخزن أسقف طرابلس من كثير من الآلام والحزن، والأذى، ولم يكن بإمكانهم المغادرة، لأن الطريق قد أغلق أمامهم وكان محروساً بشكل جيد من كل من البر والبحر، ولهذا كان أن بعث إلى سلطان دمشق ( ١٧١ ) يطلب منحه مع رفاقه أماناً ومساعدة حتى يتمكنوا من المرور خلال بلاد الكفار، ومن ثم يذهب إلى عكا، ومنحه السلطان ما طلبه بترحاب، لكن الأمور التي وقعت فيما بعد جعلت ذلك غير محتاج إليه، وكان السير برتراند بورسليت زوج والدة السير عموري ( ١٧٢ ) مع مجموعة من الرجال العائدين للسير هيوج صاحب جبلة موجودين في بلاد طرابلس، وغالباً ما اعتادوا على السير وهم على ظهور خيولهم حول مقر السير بالين ورفاقه، وكانوا آنذاك يشيرون بأصابعهم إشارات تهديد ( ١٧٣ )، ذلك أنهم كانوا ينتظرون من يوم إلى يوم وصول غلايين اللومبارد، وأملوا أنهم سوف يتمكنون وقتها من أسر السير بالين ورجاله، وقتلهم في ذلك المقر، وهكذا عانى السير بالين وصحبه من هذا التهديد.

١٠٠ ( ١٦٩ ) : وحدث أنه عندما قام جيش القبارصة بمغادرة بيروت، أن أعلن اللومبارد بأن جيش قبرص قد فرّ، وبناء عليه بعثوا إلى قبرص السير عموري برلياس، والسير عموري صاحب بيسان، والسير هيوغ صاحب جبلة ورجاهم، والكونت رتشارد الذي كان من اللومبارد، وقد استولى هؤلاء على جزيرة قبرص فيما عدا قلعة ديودامور، حيث اعتصم أخوات الملك وشعب البلاد، وبعد هذا استولوا على سيرينا، وقبل أن تسقط سيرينا كان السير بالين دي إيبيلين قد أعد بشكل سري جداً، أن يقوم الجنوبيون، الذين قدموا إلى طرابلس في مركبين طويلين، بالالتحاق بخدمته وأن يصبحوا من رجاله، وقد أعطاهم إقطاعات، وعقدوا معه ميثاقاً بأنهم سوف ينقلونه إلى قبرص، ووافقوا على أنه إذا ما استطاع المغادرة سوف يتمكن من غلبة الذين كانوا في قبرص وإخضاعهم، وعلم أمير طرابلس بالأمر، فاعتقل الرجال والسفيتين بالقوة، ومنع مغادرتهم (١٧٤).

١٠١ ( ١٧٠ ) : ولسوف تسمع الآن أخبار مولاي صاحب بيروت، الذي كان قد ذهب إلى عكا، وقد تولى عرض الأمور، وأظهر منطوقاً عظيماً إلى شعب البلاد، الذي خاف من تسلط اللومبارد، وأن ذلك سوف يجلب الدمار إليهم، وبناء عليه جعلوه مقدم «كومونة» عكا (١٧٥) والتحق الجنوبية عن طواعية ورغبة به، ودفعتهم إلى هذا حبهم الشخصي له، ولأن الامبراطور فردريك كان قد بعث بأوامر إلى سورية قضت بوجوب اعتقالهم شخصياً مع بضائعهم (١٧٦)، وبذل صاحب بيروت جهوداً عظيمة حتى تمكن من تأمين أسطول كبير (١٧٧)، ووصلت أخبار هذا إلى اللومبارد، فبادروا إلى إحراق آلتهم وتحلوا عن حصار بيروت، وهربوا مجلّين بالعار، من هناك، إلى صور .

١٠٢ ( ١٧١ ) : وعندما باتت هذه الأخبار معروفة في طرابلس، وجد السير بالين المزيد من الأصدقاء، وحصل على أمان العبور، وبناء

عليه سافر من هناك وتوجه إلى بيروت، فوجد المكان قد تعرض لتخريب كبير، ولهذا حزن وشعر بأسف عظيم، لكنه استقبل ببهجة عارمة وبتحيات حارة، وانتظر هناك أوامر مولاي صاحب بيروت، أي أوامر أبيه .

١٠٣ ( ١٧٢ ) : وأقنع الملك هنري وصاحب بيروت وجميع جيش القبارصة من عكا باتجاه قلعة ايمبرت ( ١٧٨ ) ، وقد سمعوا بأخبار التفريج عن بيروت، ولذلك أقاموا هناك وانتظروا للتشاور حول ما ينبغي أن يفعلوه (١٧٩)، ووصل إليهم في اليوم التالي بطريك أنطاكية الخائن، الذي كان من اللومبارد ( ١٨٠ ) ، وكان قد اجتاز بمدينة صور، وتحادث هناك مطولاً مع اللومبارد، وجعل من المفهوم من قبل الملك هنري وكذلك من قبل صاحب بيروت، أنه يمتلك صلاحية كاملة وتفويضاً من قبل اللومبارد، لإقامة صلح فيما بينهم، وأن الصلح الذي يعد له سيكون لتمجيد الملك وصاحب بيروت والقبارصة والسوريين ، ويتماشى مع رغباتهم، وقام الرجال النبلاء، الذين لم يرفضوا قط مصالحة معقولة، وهم الذين أقاموا المصالحة من قبل عن طواعية في وقت امتلكوا فيه التفوق، لقد قام هؤلاء باتباع البطريرك إلى عكا، وقد تشاوروا معه وتناقشوا، كما لحق به بعض خيرة رجال الجيش وأفضلهم، وكان جزء كبير من الجيش ما يزال في عكا، ولم ينطلق بعد لالتحاق بالذين تقدموهم، وكان الأسطول ما يزال بالميناء بسبب الأخبار التي سمعوها عندما وردت من بيروت .

١٠٤ ( ١٧٣ ) : وكان الملك هنري قد بقي في قلعة ايمبرت داخل معسكره مع عدد قليل من الرجال، ومع هذا كان معه الأولاد الثلاثة لمولاي صاحب بيروت أي: السير بلدوين، والسير هيوغ، والسير غي، الذي صار فيما بعد قسطلان قبرص ( ١٨١ ) ، وكان غي هذا رجلاً نبيلاً وشجاعاً، كما كان هناك السير جون دي إيبلين، الذي غدا فيما بعد

كونت يافا، وكان وقتها فارساً جديداً، له من العمر سبع عشرة سنة فقط، وكان هناك أيضاً السير أنسيو، الذي كان قائداً للجيش في مكان مولاي صاحب بيروت، وكانوا معسكرين بشكل سيء، واحد هنا، وواحد هنا، دون أن يخشوا أحداً، وفي الحقيقة كانوا قد قالوا بأنهم ذاهبون للاستيلاء على صور .

١٠٥ : وتجسس اللومبارد الذين كانوا في صور عليهم، وعلموا أنهم كانوا معسكرين بشكل سيء، وأنهم كانوا يتكونون من حفنة من الرجال فقط، ولهذا انطلقوا من صور وقت حلول الظلام، وجلبوا معهم شعب صور بالقوة، وكانت الأحوال الجوية جيدة في البحر، وقد جاءوا على ظهر اثنين وعشرين من الغلايين، ونزلوا عند قلعة إيمبرت، وهاجموا جيش القبارصة خلال الليل ووجدوهم نياماً وغير مسلحين ( ١٨٢ )، وكان بعض الرجال قد أخبروا السير أنسيو بأن اللومبارد كانوا قادمين، لكنه لم يصدقهم، كما أنه لم يتنازل بنشر الخبر، ولهذا يستحق لوماً كبيراً، ولم يكن هناك رجال مثلهم فوجئوا فدافعوا عن أنفسهم أحسن منهم، فقد قام أولاد مولاي صاحب بيروت: السير بلدوين، والسير هيوج، والسير غي بأعمال قتالية إعجازية، وقد جرح السير بلدوين هناك جراحة خطيرة، وكذلك ابن أخته السير جون، الذي كان شاباً، فقد قام هناك بأفاعيل جلبت له شهرة عظيمة طوال حياته كلها، وأظهر السير أنسيو شجاعة رائعة، ومرد ذلك إلى الشجاعة التي توفرت لديه، ولأنه كان القائد، ولأنه عدّ نفسه مجرمًا، لأنه سمع بالأخبار، ولم يحمي بنشرها، ونجا الملك وهو عريان تماماً تقريباً، وقد وضع على ظهر فرس، وهرب من هناك إلى عكا ( ١٨٣ ) .

١٠٦ : ولم يخسر القبارصة طوال الليل معسكرهم، وقاتلوا خلال الليل كله، وكان بعض القبارصة يقاتلون على الأقدام، وبعضهم على ظهور الخيل لكن بدون سرج، وهمل بعضهم دروعاً، وكان بعضهم الآخر

عراة، وكان هناك عدد كبير منهم بدون سلاح تماماً، وكان بعضهم على ظهور خيول بدون مقاود، وبعضهم بلا رماح، وآخرون بلاسيوف، ومع هذا وجهوا ضربات عنيفة للومبارد وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وعند بزوغ فجرالنهار نزل الذين كانوا في الغلايين، وأظهر ضوء النهار كم كان عدد القبارصة قليلاً، وهكذا تم الاستيلاء على المعسكر، ومن ثم نهبه كله، وكانت هناك خسارة كاملة لجميع الخيول، باستثناء الخيول التي كانت مركوبة، فهذه نجت، وقد أسروا أربعة وعشرين فارساً، وقتلوا عدداً صغيراً، وكان عدد الجرحى كبيراً، وجرى الاستيلاء على المعسكر كله وعلى غالبية الأسلحة، ووقف فرسان القبارصة الذين دافعوا عن أنفسهم بشكل جيد، على رابية صغيرة تبعد حوالي رمية سهم زنبورك عن المعسكر، ورآهم اللومبارد بكل وضوح، غير أنهم لم يقتربوا منهم .

١٠٧ ( ١٧٥ ) : ووصل الملك هنري إلى عكا، ولدى سماع صاحب بيروت للأصوات خرج ومعه الذين رغبوا باتباعه ( ١٨٤ )، وهم يشعرون بالحزن وبالأم، وكان أول عمل قاموا به هو استقبال الملك، حيث شكر صاحب بيروت الرب على وصوله، ثم تقدموا لاستقبال الرجال الآخرين الذين كانوا فارين، وعندما رآه (صاحب بيروت) هؤلاء، تخلوا عن الطريق ( ١٨٥ )، وبدأ واحد من السيرجندية يقول بأنه سيذهب ليرى فيما إذا كان أحداً من أولاد مولاه بين الفارين، واعترض عليه مولاه قائلاً: « لا تفعل ذلك، سنجدهم كيفما كان الحال، فهم لن يتجرأوا على الفرار بعيداً، وهم لن يأتوا إلى المكان الذي من الممكن أن أكون به»، وبعد مسافة قصيرة إلتقى (صاحب بيروت) بواحد من سيرجنديته القدامى الذي كان هارباً: وبكى هذا الرجل وقال له: « لقد تم فقدان جميع أولادك الرائعين، وهم الآن موتى»، وقال الرجل النبيل مجيباً له: «وماذا في ذلك، أيها الجبان الذي؟ وهكذا ينبغي أن يموت الفرسان وهم يدافعون عن أجسادهم وشرفهم»، ومضى في طريقه إلى الأمام مسرعاً، وعندما

وصل إلى قلعة إيمبرت رأى الذين كانوا وقوفاً فوق الراية، وما أن رآه هؤلاء حتى نخزوا خيولهم وساروا خلف اللومبارد الذين كانوا وقتذاك ينسحبون .

١٠٨ - وما أن رأى اللومبارد الذين كانوا قادمين من عكا حتى شرعوا بالفرار، وعبروا مسرعين الشعب الجبلي لممر البوليان ( ١٨٦ )، وهناك وجد صاحب بيروت رجاله، الذين انقضوا على كافة قوات اللومبارد، ولقد رأى وأدرك أن ذلك القتال وتلك المطاردة، لن تحقق شيئاً، لأن أعداءه كانوا قد دخلوا بالممر ولديهم كثير من الرماة ورماة القسي العقارة، ولهذا استدعى رجاله، وحمد الرب كثيراً أنه وجدهم أحياء، وأنهم تصرفوا بشكل جيد ودافعوا عن أنفسهم دفاعاً جيداً، ووجد هناك جميع أصدقائه الأعداء باستثناء ابنه السير هيوج، وقد وجده في بيت عسكري قديم كان في القلعة، ذلك أن فرسه كان قد قتل قرب ذلك البيت، وكان قد دخل هو وفارس آخر كان رفيقه إلى قلب هذا البيت، وحصناه بالحجارة حتى سمعا أصوات المنقذين، وكان من المعتقد أنه قد قتل أو أسر، ولذلك كان السرور عظيماً عندما وجد هناك .

١٠٩ ( ١٧٦ ) : وذهب اللومبارد إلى صور مع غنائم عظيمة، لأن الذين كانوا في الغلايين والذين كانوا على الأرض قد حملوا كل ما وجدوه، ولأنهم أخذوا أشياء تفوق الحصر - معظم الخيول، والأسلحة، والتجهيزات التي عادت إلى القبارصة - بات موقفهم المضي في حملتهم، وأن أعداءهم لن يستطيعوا التعافي في قبرص، كما لن يتمكنوا من العبور إليها إلا بعد وقت طويل، ولهذا رتبوا القيام بشرط قواتهم، فقد تركوا حامية في مدينة صور، وعبروا على الفور إلى قبرص مع قوات كبيرة للاستيلاء على الجزيرة وقد أعانهم على ذلك أحوال مناخية مواتمة فوق سطح البحر، وقد حدث هذا في سنة ١٢٣٢ ( ١٨٧ ) .

١١٠ ( ١٧٧ ) : وما أن بات اللومبارد في قبرص حتى استسلمت

قلعة كنتارا إليهم، وقد حدث من قبل استسلام برج ميناء فيياغوستا إلى السير عموري صاحب بيسان، وإلى السير هيوج صاحب جبلة، وكذلك استسلام قلعة سيرينا إليهم، وهكذا لم يبق من جميع قلاع قبرص تابعاً لصاحب بيروت أو للملك هنري، غير قلعة ديودامور فقط، فإلى ذلك المكان كان قد توجه كل من أختي الملك (١٨٨)، والسير أرنيس صاحب جبلة (١٨٩)، الذي كان في ذلك الوقت وكيل الخازن (١٩٠) (Secrete)، وكان هناك أيضاً فيليب دي كافران (١٩١) Caffran، الذي كان القسطلان، والتجأ إلى المكان نفسه عدد صغير من الفرسان، و سيدات و فتيات، و كلهن تجمعن هناك قبل أن يمتلكن الوقت لتجهيز أنفسهن، و كان مع الجميع أناس من بقية الشعب الذين امتلكوا زاداً قليلاً من الطعام، والأشياء الأخرى التي احتاجوها. (١٩٢)

١١١: غير أن معظم سيدات و فتيات و أطفال قبرص قد أخذوا على حين غرة، و لم يكونوا بالتالي قادرين على الذهاب إلى ديودامور، و هكذا التجأوا إلى الكنائس و بيوت الدين الأخرى، و كانت هناك كثرة كثيرة قد التجأت إلى الجبال، و هناك اختبأت أو في الكهوف، و ارتدت هذه السيدات ثياب الراعيات، و أولادهن ثياب أولاد الرعيان، و توجهت هذه النساء نحو العمل على قطف سنابل القمح التي توفرت هناك، و على هذه السنابل عاشوا هن و أولادهن وسط شقاء عظيم من المؤلم روايته، و التجأت اسشيف دي مونتبليارد (١٩٣)، التي كانت و قتذاك زوجة السير بالين دي إيبيلين ابن مولاي صاحب بيروت، التجأت هي و أولادها إلى مقر الاستبارية، و عندما سمعت بأن اللومبارد قد وصلوا تملكها خوف عظيم، فارتدت ثياب واحد من صغار الرهبان، و تخلت عن أولادها و اقطاعها، و صعدت إلى قلعة عرفت باسم بوفافيتو، و قد استقبلت هناك من قبل فارس عجوز اسمه غيونارت دي كونشي (١٩٤)، الذي كان مقيماً هناك لصالح الملك، و قد زودت

نفسها، وهكذا شحنت بوفافيتتو بالأطعمة، و كانت القلعة قبل ذلك لا تمتلك شيئاً.

١١٢: و قدم اللومبارد مسرعين إلى نيقوسيا، و قد اقترفوا هناك كل الآثام و المفساد و الشرور التي عرفوها و كانوا قادرين على اقترافها، و اقتحموا الكنائس و بيت الدواية مع بيت الاستارية، و جميع البيوت الدينية، و سحبوا و جروا إلى الخارج السيدات و الأطفال الذين تعلقوا بالمذابح و بالكهنة الذين كانوا ينشدون القداسات، و حدث في تلك الأثناء أنهم قاموا في أحد الأماكن فانتزعوا من يدي الكاهن جسد ربنا، و رموا بالقربان المقدس على الأرض، و قد وضعوا السيدات و الأطفال في عربات و على ظهور الحمير بشكل مهين جداً، و بعثوا بالجميع إلى سيرينا للسجن هناك، و التقطوا بالخطا طيف الذين رفضوا الذهاب على الفور، و كان اللومبارد قد استولوا على سيرينا، و جلبوا إلى هناك كميات كبيرة من المؤن، ذلك أنهم أرسلوا بغلابينهم و بمراكبهم إلى ذلك المكان كل ما وجدوه على طول سواحل قبرص.

١١٣ (١٧٩): و توجه اللومبارد مع الخونة الآخرين لحصار ديودامور، و قد طوقوها و ضغطوا عليها عن قرب، ذلك أنهم عرفوا أن الذين كانوا فيها كانوا مزودين بقليل من المؤن، و قد بعثوا إلى الحصار، و الضغط على القلعة بلا هوادة، أكثر الناس عداً لكل من الملك و صاحب بيروت، و هكذا بعثوا بما لا أعرف عدده من طواقم رماة القسي العقارة، و حائثي الأيمان و الخونة الذين فروا من جيش القبارصة و قصدوا جبلة، عندما مرّ جيش القبارصة أمامها، و هو على طريقه للتفريج عن بيروت. (١٩٥)

١١٤ (١٨١): و أكمل الآن الملك هنري السنة الخامسة عشرة من عمره، (١٩٦) و بات قادراً على التصرف حسب رغباته بحكم كونه سيداً قد وصل إلى السن القانونية، و وعد بناء عليه بمنح عدة أقطاعيات للذين كانوا معه، و وعد الجنويين بإعطائهم امتيازات إعفاء و محكمة في

مملكة قبرص (١٩٧)، إذا ما استمروا بصحته فقط حتى يصل إلى قبرص، و مثل صاحب بيروت، الذي كان آنذاك مقدم «كومونه» عكا، حسبنا أوردنا خبر ذلك من قبل، أمام البطريك جيرولد، بطريك القدس، و كان ذلك بحضور الملك هنري و عدد كبير من الرجال الذين كانوا هناك وتشكى للبطريك، الذي كان أيضاً النائب البابوي، (١٩٨) بسبب الأضرار التي ألحقها اللومبارد بالملك و به شخصياً، فيما يتعلق بالمسألة التي رويت أخبارها أعلاه، وكان من بين المسائل التي تولى عرضها هو أنه ذكّر الناس وأخبرهم كيف أن اللومبارد كانوا قد استولوا على اسطول الملك بأجمعة، عندما جاء الملك من قبرص، لأن الملك كان قد أرسل السفن التي نجت من البترون إلى قبرص، فهولاء قد استولوا على هذا الاسطول، و على جميع السفن التي بقيت، و استولوا كذلك على مملكة قبرص، لابل أكثر من هذا لقد حاصروا أختي الملك في إحدى القلاع، و يرغب الملك بالذهاب للتفريج عنهما، لكنه لا يمتلك اسطولاً يلبي حاجته، و هناك الاسطول الذي قدم به اللومبارد، و هو موجود في ميناء عكا، و لهذا فإنه يطلب من البطريك، بحكم كونه النائب البابوي، أن يأمر بالترخيص له بأخذ سفن الاسطول الراسية في ميناء عكا، لأن أصحابها من المحرومين كنيساً، و من الذين هاجموا قلاع المسيحيين، و الذين انتزعوا من الملك اسطوله و مملكته.

١١٥: ورد عليه البطريك الطيب بأنه لا يرغب بالتدخل بمسائل الحرب و السلام، لكنه قال بأنه رأى في إحدى المناسبات في بلاده عندما كان صيادون يصطادون فرائسهم، وكانت الحيوانات كثيرة، كانوا يجلبون كلاب صيدهم، ويشيرون بأيديهم، ويقولون لهم: « اذهبوا وخذوها»، و عندها ركض الفرسان و السيرجنديّة و البوليان (١٩٩) الذين كانوا في الميناء، نحو البوارج و السفن الصغيرة التي وجدوها في الميناء، ثم

قصدوا سفن الاسطول، واستولوا بالقوة على ثلاث عشرة سفينة منها، بمشيئة الرب، أما السفن الأخرى وما بقي من سفن الأسطول فقد هرب الجميع إلى صور (٢٠٠)، و جند الملك هنري و صاحب بيروت أكبر عدد من الناس قدروا على تجنيده (٢٠١)، و لهذا أقدم صاحب قيسارية الشاب على بيع جزء من بلاده في قيسارية، وكذلك فعل مولاي جون دي إيبيلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، حيث باع قرية كبيرة امتلكها و كانت في عكا (٢٠٢)، وأقرضوا المال إلى الملك، وقام عدد كبير من بوليان الميناء بتجهيز أنفسهم بسرعة و انطلقوا (٢٠٣)، هذا و لست أدري كم عدد السفن المسلحة التي امتلكوها، هذا وقد أعطاهم الملك اقطاعيات مقابل الخدمات التي قدموها له في البحر .

١١٦ ( ١٨٢ ) : وأقلعوا من عكا للقيام برحلتهم ( ٢٠٤ )، وقد مروا أمام صور بسفنههم، وخرجت سفن اللومبارد التي قدمت من قبرص لمحاربتهم، وأطلقت أشرعتها للريح، لكنها لم تتجرأ على الاقتراب من الجيش، ومع ذلك ظلت هذه السفن تتابع إبحارها بالاتجاه المعاكس للريح، وظلت تترصد الفرصة للإحاق بالضرر بهم، ووصل جيش القبارصة إلى أمام صيدا، وإلى هناك جاء السير بالين الذي قدم من طرابلس إلى بيروت مع الجماعة التي سميها أعلاه ( ٢٠٥ )، كما ووصل إلى هناك أخوه السير جون صاحب فوغيا ومعه أيضاً جماعته التي سميها أعلاه، وهي التي كانت معه في قلعة بيروت، و...صاحب صيدا ( ٢٠٦ )، وقد أعطاهم الملك هنري ملك قبرص كثيراً من الإقطاعيات.

١١٧ ( ١٨٣ ) : وأبحر القبارصة من ميناء صيدا، أمام تيار الرياح، ووصلوا إلى قبرص، ونزلوا في لى غري ( ٢٠٧ ) Gree، وإقتربت في تلك اللحظة غلايين اللومبارد منهم وكانت تجري بالاتجاه المعاكس للريح، وبعثوا أثناء الليل إلى البحر من يتجسس لمعرفة مكان جيش اللومبارد، وقد علموا بشكل مؤكد أن الجيش مع جميع قواتهم موجودة في

فياغوستا، وأن غلايينهم راسية في الميناء .

١١٨ ( ١٨٤ ) : وزحف جيش القبارصة إلى أمام فيياغوستا، وكان اللومبارد في المدينة ولديهم أعداد هائلة من الرجال، وذلك من الفرسان والرجالة سواء، وكان لديهم الكثير من الخيول والسلاح مما كانوا قد استولوا عليه في قلعة إيمبرت مع ما كانوا وجدوه في قبرص، وكان معهم الخونة الذين تخلوا عن الملك عند ميناء القسطلان، وذلك حسبما روينا من قبل في هذا التاريخ، كما كان معهم رجال آخريين حصلوا عليهم من طرابلس وأرمينيا، وتوركبلية جندوهم من قبرص، وبناء عليه كان من المقدر بشكل صحيح أنه كان لديهم ألفي فارس في جيشهم، وكان لدى الملك هنري وصاحب بيروت مائتين وثلاثة وثلاثين فارساً .

١١٩ ( ١٨٥ ) : وعندما وصل جيش الملك هنري إلى أمام فيياغوستا، ابتعد قليلاً عن اليابسة، وراقب صاحب بيروت الأوضاع فرأى أن الساحل كان مشحوناً بشكل جيد بالرجال ضده، وكانوا جميعاً مسلحين، وأنه إذا ما حاول النزول إلى اليابسة سوف يتعرض إلى مخاطر شديدة، ولاحظ وجود جزيرة أمام اليابسة حيث كانت هناك مخاضة يمكن للإنسان أن يجتازها إلى اليابسة عندما تكون المياه في أدنى درجات انخفاضها من جانب اليابسة، وذلك عندما يكون البحر هادئاً، ونزل جيش القبارصة في هذا الجانب مع خسائر فادحة بسبب الصخور التي كانت هناك، وبادروا على الفور مسرعين نحو رأس الجزيرة المقابل لليابسة، حيث توفرت المخاضة، ومركزوا هناك عدداً من الرجال المسلحين ليتولوا حراسة المخاضة حتى يكونوا جميعاً قد غادروا السفن، وتهيأوا تماماً .

١٢٠ : وأطلق رجال الامبراطور الجروح باتجاه ذلك المكان، وقدموا كل ما استطاعوه من مقاومة، واستخدموا القسي العقارة، وكان هناك الكثير من رميات الحراب والنشاب من على الطرفين، ومع ذلك رسا القبارصة

ونزلوا إلى اليابسة صغيراً وكبيراً وفق ما أرادوا، وكان بإمكانهم مع خيولهم المعسكرة على الجزيرة، وقد تولوا الحراسة طوال الليل بشكل جيد، وركزوا اهتمامهم على المخاضة التي يتوجب عبورها إلى أرض الجزيرة القبرصية، وأرسلوا بعد منتصف الليل بوارج ومراكب صغيرة مسلحة إلى الميناء، وبادروا من هناك مسرعين إلى واحد من أماكن المدينة، وكان الجيشان عظيماً، ثم ألقى اللومبارد النار بجميع سفنهم التي كانت في الميناء، وتخلوا عن المدينة وهجروها، وامتطوا خيولهم ومضوا إلى نيقوسيا، وبادر جيش الملك بالزحف مسرعاً، واستولى على مدينة فيماغوستا في أثناء الليل .

١٢١ ( ١٨٦ ) : وقام في الصباح التالي الملك وقبارصته بتسليح أنفسهم، وإعداد خيولهم، وامتطوها وعبروا المخاضة إلى أرض الجزيرة وهم على تعبئة، وكانوا يتوقعون مواجهة مقاومة أثناء عبور المخاضة، لكنهم لم يواجهوا أي شيء من هذا النوع، وهكذا وصلوا إلى مدينة فيماغوستا، وأقاموا هناك لمدة يومين أو ثلاثة ليرجحوا أنفسهم، وكان اللومبارد قد تركوا برج البحر مشحوناً بالرجال، وتعامل الملك معهم ومنح القادة إقطاعات، وبذلك سلموا إليه برج ميناء فيماغوستا، وقدم إليهم إلى هناك ثلاثة رجال قدموا أنفسهم إلى الملك، وكانوا هم الذين يتولون حراسة كتارا لصالح اللومبارد، وقد أعطاهم الملك الذي طلبوه، وبالمقابل سلموا إليه كتارا مع بوفافيتتو ( ٢٠٨ )، وسامح صاحب بيروت وأولاده واحداً منهم، اسمه همفري دي مونيارى Monaire، وكان قد سبب لهم شروراً كثيرة، وكان الذي تدبر استرداد كتارا وبرج فيماغوستا وأعدّ لذلك هو فيليب دي نوفار.

١٢٢ : وبقي ملك قبرص ثلاثة أيام ( ٢٠٩ ) في فيماغوستا، عالج في أثنائها الأمور مع قائد الجنويين ( ٢١٠ )، الذي كان اسمه السير وليم دي لى أورت Ort، وكان هو بالوقت نفسه قنصل الجنويين، ورجلاً ثرياً )

( ٢١١ )، وقد منحه الملك كل الذي أراده وطلبه: فهو قد منح إلى الجنويين في جميع أرجاء قبرص امتيازات إعفاءات ومحكمة، باستثناء النظر في ثلاثة أمور قضائية تعلقت بالقتل، والاعتصاب الجنسي والخيانة ( ٢١٢ )، وأعطاهم داراً في نيقوسيا، ومحكمة ذات صلاحيات بحرية ( ٢١٣ )، وقلعة اسمها دسبويير ( ٢١٤ ) Dspoire وضمنوا تعهداتهم للملك ييمين أقسموه، وكذلك فعل الملك لهم، وتعلقت هذه التعهدات بالعون، وشروط التحالف ( ٢١٥ )، هذا وكان ما منحهم الملك هنري إياه له استمرارية دائمة وكان ذلك عن طواعية ورغبة منه ومن مولاي صاحب بيروت، وصعد الجنويون ثانية إلى ظهور سفنهم، وذهبوا إلى لياسول، وكانوا هناك عندما علموا بأخبار المجد الذي منحه ربنا فيما بعد إلى ملك قبرص وإلى رجاله، وعندما علموا بهذا ذهبوا إلى جنوى، وكانت سفن اللومبارد طوال هذا الوقت في مياه قبرص وكانت مدركة لما كان يحدث، غير أنها لم تتجرأ قط على لمس السفن .

١٢٣ : وعندما باتت سفن ( الجنويين ) في أعالي البحار، جاءت سفن اللومبارد إلى سيرينا، التي كانت ما تزال بأيدي اللومبارد ( ٢١٦ )، وكان جيش اللومبارد عندما غادر فياغوستا قد أحرق الحظائر والمخازن والسهل كله، وقد سبب هذا أضراراً بالغة، لأن معظم الحبوب كانت في المخازن، وقد حطموا جميع المطاحن في لى كويتري Quetrie ( ٢١٧ ) لابل إنهم دمروا حتى المطاحن اليدوية في نيقوسيا، وذلك بقدر ما استطاعوا، ولدى سماع القبارصة بهذه الأخبار شعروا باطمئنان عظيم، وقالوا إنه لمن الواضح تماماً لو أنهم خططوا للاستمرار باحتلال البلاد لما فعلوا ذلك، وقد منح ربنا نعمة لامثيل لها للقبارصة، ذلك أنهم كانوا قليلين جداً بعددهم من الرجال إلى حد أنه بدا بالنسبة لهم أنهم ما أن يلقون اللومبارد سوف يهزمون من قبلهم لا محالة .

١٢٤ ( ١٨٧ ) : وغادر الملك هنري وصاحب بيروت ومعه قومه

فيماغوستا ، ووصلوا خلال عدة أيام إلى نيقوسيا بعد ما لحقت الأضرار الكبيرة بتجهيزاتهم وبمعداتهم، وبعدها تبقى معهم عدد قليل من الرجال، وتخلي اللومبارد عن المدينة، وعسكروا في الوادي فيما بين جبلين عاليين على الطريق إلى سيرينا، وكان موقع معسكرهم جيداً وحصيناً إلى حد أن ما من واحد كان قادراً على الوصول إليهم إلا عبر طريق ضيق فوق جبل عظيم، وكان الممر هناك مدافعاً عنه بشكل ممتاز، كما أنه لم يكن بإمكان القبارصة التفريج عن قلعة ديودامور ونجدها إلا عبر هذا الطريق نفسه، وامتلك اللومبارد كل ما احتاجوه في جانب سيرينا، في حين كان المتبقي من أغذية في قلعة ديودامور يكفي ليومين فقط .

١٢٥ ( ١٨٨ ) : ودخل الملك هنري وصاحب بيروت مع رجالهم إلى نيقوسيا حيث وجدوا القليل مما كانوا بحاجة إليه، وكان هناك نقص شديد بالخبز، وكان صاحب بيروت قلقاً جداً لأن رجاله قد تشتتوا بشكل أحمق وعسكروا في أرجاء المدينة، وخاف من أن يقوم أتباع اللومبارد بمهاجمة رجاله أثناء الليل، لذلك قام في وقت العشاء باستنفار الجميع وقال بأن اللومبارد في طريقهم إليهم، وبناء عليه خرج الجميع ووقفوا خارج نيقوسيا ( ٢١٨ )، وما أن أصبح الرجال خارج المدينة وقد تعبأوا واصطفوا للقتال، حتى أعلن لهم صاحب بيروت بأن اللومبارد قد تراجعوا وذهبوا، ثم قام باسم الملك بمنع كل واحد من الجيش من دخول المدينة، وقد اختار أفراد الجيش بقعة خارج المدينة ( ٢١٩ )، حيث توفرت حدائق على أحد الجوانب وخذق صغير، وعسكروا هناك تلك الليلة، وتحرزوا كثيراً بالحراسة، وأقاموا مراكز رصد وإنذار جيدة، ذلك أنهم تذكروا بشكل جيد قلعة إيمبرت .

١٢٦ ( ١٨٩ ) : وفي صباح اليوم التالي، الذي كان يوم ثلاثاء ( ٢٢٠ )، انطلق القبارصة، ووافق هذا اليوم مرور أكثر من خمسة أسابيع على وقوع حوادث قلعة إيمبرت، واقترح الملك وصاحب بيروت مع

مستشاريهم وجوب ذهابهم إلى السهل الواقع دون معسكر أعدائهم، فإذا ما انحدر اللومبارد نحوهم، فتلك كانت رغبة القبارصة بإنشأ القتال، وإذا لم يفعلوا فإنهم سوف يعسكرون في قلعة اسمها أغريدي، قائمة قرب مكان واقع عند سفح الجبل، فمن هناك يمكنهم أن يبعثوا خلال الليل التطمينات والمعونة إلى الذين في ديودامور بواسطة رجال يسرون على الأقدام عبر ممر ضيق ومنزلق قائم فوق القلعة، وتنفيذاً لهذا الاقتراح زحف القبارصة حتى وقفوا فيما بين اللومبارد وأغريدي (٢٢١)، وما أن رأى اللومبارد من الأعلى كيف أن القبارصة كان عددهم قليل، وكيف أن تجهيزاتهم كانت فقيرة حتى استخفوا بهم، ورأوا أنه من العار تجنب الإقتتال معهم، وصرخوا جميعاً بصوت واحد: « عليهم، عليهم، دعونا نذهب ونأسرهم » .

١٢٧ : ثم تخرج صاحب بيروت، وجثا على ركبتيه، وحمد ربنا، أن الأعداء انحدروا نحو الاقتتال، لأنه كان يعرف كما قال بأن ذلك معناه سيكون تحرير (شعبه)، وأن ذلك خير ما يمكن أن يحدث لهم، وقد صلى بخشوع وطلب من ربنا أن يمنح في ذلك اليوم المجد والنصر إلى الملك وإلى حزبه، وقد نذر في تلك الساعة بشكل سري - الأمر الذي نفذه فيما بعد - أن ينتسب إلى واحد من البيوت الدينية، وقام بتعبئة صفوف قواته بشكل مبدع، وكان ابنه السير بالين دي إيبيلين قد قاد دوماً في هذه الحرب الصف الأول من القوات، وقد جعله في هذه المرة يأتي ويقف أمامه، وطلب منه أن يقسم على إطاعة أوامر الكنيسة المقدسة، ذلك أنه كان تحت الحرمان الكنسي بسبب زواجه، وقد ردّ عليه أن ليس بإمكانه الاستجابة لهذا الطلب، ورد عليه الرجل النبيل وقال: « بالين لدي ثقة وإعتماد على الإيمان بالرب أكثر من الاعتماد على فروسيك والثقة بها، وبما أنك على غير استعداد للاستجابة لطلبي، أترك الصف، لأنه إرضاء للرب، سوف لن يكون رجلاً محروماً قائداً لقواتنا»، فهذا ما كان قد قاله

وهذا ما جرى تنفيذه .

١٢٨ : وأقام قائداً للصف الأول من القوات السير هيو ابنه، وجعل السير آنسيو دي بري قائداً للصف الثاني بعده، والسير بلدوين دي إيبيلين قائداً للصف الثالث، وصاحب قيسارية الشاب قائداً للصف الرابع، وهو صف ساقه الجيش، ذلك أنه لم يمتلك صفوفاً أكثر ( ٢٢٢ ) .

وكان في صف الساقه هذا الملك، وصاحب بيروت، وابن أخته الشاب السيرجون وعدداً كبيراً آخر ممن رغبوا في أن يكونوا في الصف الأول، وأمر صاحب بيروت ابنه السيربالين أن يكون معه في ساقه الجيش، وقال له: «باسم الرب»، غير أنه فعل عكس ذلك، حيث تخلص من مكانه، وذهب إلى الصف الأول حيث كان أخاه السير هيوج والسير آنسيو، فقدم لهما النصيحة، وأراهما الذي عرف أنه مفيد ونافع، ثم إنه تركهما ووضع نفسه أمامهما على الطرف، وكان معه عدد قليل من الرجال، لأنه كان آنذاك خمسة من الفرسان فقط هم الذين يتكلمون معه، فقد أقسم الآخرون جميعاً على احترام أوامر الكنيسة المقدسة، ومن أولئك الخمسة كان فيليب دي نوفار واحداً منهم، وكان الآخر هو ريموند دي لي فليس Face، فهذان كانا من أتباعه، وقد تسلما إقطاعها منه، وكان بيتر دي مونتوليف Montolif هو الثالث، وكان مدفوعاً له ومعطى أشياء من قبله، وكان الاثنان المتبقيان هما روبرت دي مومني Maumeni، ويودس دي لي فيرتي Fierte، وكان هو الذي رباه وجعله فارساً ( ٢٢٣ ) .

١٢٩ ( ١٩٠ ) : وعندما اقتربت مقدمة قوات أول مجموعة من اللومبارد من كتلة مولاي صاحب بيروت والملك، اندفع السير بالين نحو بقعة خطيرة جداً، مشكلة من صخور وحجارة، ومضى إلى قتال الآخرين فوق في وسط الممر، وقد أعاقهم كثيراً، وقام بأعمال قتالية رائعة، إلى حد أن ما من إنسان كان قادراً على دخول هذا الممر أو مغادرته

وجوازه، وصبر كثيراً وتحمل إلى درجة أن جميع الذين رأوه يشهدون أنهم عاجزين عن التصديق أن رجلاً واحداً قد استطاع قط أن يفعل مثل هذه الأفاعيل، وكثيراً ما ضغط عليه بعدد كبير من الرماح، حتى أنه ما من واحد صدق أن بإمكانه النجاة مطلقاً، ورآه الذين كانوا في الأسفل مع الملك وعرفوه وميزوه تماماً من خلال سلاحه، وصرخ كل واحد منهم إلى مولاي صاحب بيروت قائلاً: «آه يامولاي، دعنا نعاون السير بالين، لأننا نرى أنه سوف يقتل فوق في الأعلى»، وأجابهم (صاحب بيروت) بقوله: «دعوه لوحده، الرب سوف يعينه، فهذا يرضيه، وسوف نمطي خيولنا، ونمضي مباشرة إليه، ذلك أننا إذا ما انحرفنا جانباً يمكن أن نخسر كل شيء»، وكان القتال شديداً على كل جانب في تلك الساعة، واستمر طويلاً، وسقط وقتذاك العديد .

١٣٠ : وقاد الكونت وولتر مينبو (٢٢٤) Manepeau الرتل الأول من قوات اللومبارد، وقد قاتل بقسوة متناهية، وصمد لجميع صفوف الملك، وانقض عليهم بشدة وحدة ومر من خلالهم وتجاوزهم بعيداً، لكن دون إحداث أضرار كبيرة، وأراد بعض الذين كانوا في صفوف الملك مهاجمته، لكن صاحب بيروت منعهم بحكمة، وحظر أن يقوم أي واحد من الالتفات إلى طرف ما، أو الانحراف إليه، ووجب متابعة حملة الفرسان، لأن الفرسان يحملون بالعادة باتجاه مباشر، وتخلى عن القتال، وانحرف نحو الرتل الرابع الكونت وولتر والسير جو فري دي موسي (٢٢٥) Mosie، ابن متسلم العدالة، وكان معها جميع قواتها (٢٢٦)، وقد هربا من هناك حتى كاستريا (٢٢٧)، دون القيام بأية أعمال أخرى، وكان الكونت بيرارد دي مينوبي (٢٢٨) Menope، الذي قاد الرتل الثاني فارساً مجرباً وتحت إمرته مقاتلين جيدين، وقد حمل بشكل فعال جداً، ووضعه الرتل الأول من قوات القبارصة، لكن عساكر السير بلدوين ساعدوهم بثبات وتصرف الكونت بلدوين بشجاعة

وحكمة، وقام بأعمال قتالية عظيمة .

١٣١ : وجارى السير أنسيو دي بري الكونت بيرارد، وأمسكه من خوذته، وحرفه نحو اليسار، ولقد كان قوياً جداً ولديه حصان ممتاز، ولذلك اقتلع الكونت بالقوة من على سرج حصانه، ورماه أرضاً، وصاح «اقتل، اقتل»، ثم وصل وقتها إلى ذلك المكان ما بين الخمسين إلى الستين من السيرجندية، وهم يسرون على أقدامهم، وكان هؤلاء قد بعثهم القبارصة من قبل إلى أغريدي لإقامة المعسكر، وقد قطعوا رأس الكونت بيرارد، ومعه رؤوس سبعة عشر فارساً من حاشيته وآل بيته، كانوا قد ترجلوا لإقامته، وسرت كلمة «اقتل، اقتل» بين صفوف الجيش، وصرخ الجميع «اقتل، اقتل» .

١٣٤ : وكان في هذه المعركة فارس بين اللومبارد، قيل بأنه كان ألمانياً، وكان مغطى هو وفرسه بمعدن مذهب، وقد قام بعدة حملات، ونفذ أفاعيل قتالية عديدة، وكان قوياً جداً ونشيطاً، لذلك لم يستطع أحد قهره وإسقاطه، لكن في النهاية قتل حصانه، وألقى المقاتلون الرجالة أنفسهم عليه وقتلوه، وكان عدد كبير من فرسان القبارصة قد عبروا في حملاتهم عن بسالتهم، وكان عدد الرجال كبيراً بين اللومبارد الذين خاضوا منازلات مريرة، وكانوا بالفعل رجالاً عظاماً، وعلى جميع الأحوال قام الرب بمعجزات عظيمة، لأنه قتل من بين صفوف القبارصة فارس واحد فقط، كان قد ولد في لومباردي ونشأ في قبرص وفيها رسم فارساً، وظل كلامه كلاماً لومباردياً، حتى أنه لم يكن بإمكانه أن ينادي الملك بكلمة Vaillance، بل صرخ Baillance، ولهذا السبب قتل، حيث ظن أنه من اللومبارد ( ٢٢٩ ) .

١٣٣ ( ١٩٥ ) : ومنح الرب مجداً عظيماً وأظهر نعمة كبيرة إلى الملك هنري وإلى صاحب بيروت وإلى حزبهم، حيث تمكنوا في ساعة واحدة من النهار من إلحاق الهزيمة بأعدائهم الأقوياء وساقوهم بعيداً

وطردوهم، وقد فرجوا عن ديودامور التي كانت محاصرة، وقاموا بمحاصرة سيرينا التي التجأ إليها اللومبارد، وهرب السير جنديّة الذين كانوا يحاصرون ديودامور لصالح اللومبارد، وفروا من هناك، لكنهم لم يتجرأوا على الفرار باتجاه سيرينا خشية من القبارصة، الذين كانوا يتولون حصارها، ولهذا تشتتوا باتجاه بليسي Plassie (٢٣٠) ومن ثم انعطفوا باتجاه نيقوسيا، ولم يتجرأوا على دخولها في النهار، بل أرادوا دخولها في الليل على أمل العثور على ملاجئ في بيوت الرهبانيات الدينية .

١٣٤ : وحدث آنذاك أن فيليب دي نوفار، كان قد عاد إلى نيقوسيا للقيام ببعض الأعمال التي أمره بالقيام بها الملك هنري وصاحب بيروت، وقد علم بأن السيرجنديّة قادمون، فحشد ما أمكنه من الرجال، وخرج للتصدي لهم خارج المدينة، وقبل منتصف الليل بقليل إنقض فيليب دي نوفار عليهم ومعه رجاله فقتلوا وأسروا ثلاثمائة أو أكثر من السيرجنديّة، والذين نجوا منهم بسبب أن الوقت كان ليلاً، وجدوا مأوى لأنفسهم في الكنائس وبيوتات الرهبانيات الدينية، وأمر فيليب أن يمثل أمامه قادة السيرجنديّة الثلاثة الذين كانوا قد تخلّوا عن الملك وعن صاحب بيروت أمام جبلة، ذلك أنهم كانوا خونة وحائثين باليمين ، فأمر بهم فمزقوا ( ٢٣١ )، وكان بوده القيام بشنقهم، لكنه لم يمتلك الفرصة، لأن ما توفر لديه من الرجال كان قليلاً جداً من حوله، وكان عدد الأسرى هناك كبيراً جداً .

١٣٥ ( ١٩٦ ) : وصار معلوماً في اليوم التالي أن الكونت وولتر دي مينبو Manpeau وابن متسلم العدالة وجماعتها قد التجأوا إلى خندق قلعة كاستري، لأن الداوية رفضوا استقبالهم في الداخل، لأنهم كانوا قد قاموا من قبل باقتحام بيوتهم وجروا إلى خارجه السيدات والأطفال، حسبما تحدثنا عن هذا من قبل في سياق روايتنا، وبناء عليه بعث الملك وصاحب بيروت إلى هناك السير جون الشاب، الذي صار فيما بعد

كونت يافا، مع مجموعة من الفرسان بصحبته، وقد عشر عليهم داخل الخندق، فأخذهم أسرى، وجلبهم إلى نيقوسيا، ووضعوا هناك بالسجن مع الآخرين الذين أخذوا أسرى في يوم المعركة، وقد عهد بالإشراف عليهم جميعاً إلى فيليب دي نوفار، فهو الذي تولى حراستهم، وكان لديه في هذا السجن مائة وخمسة وأربعين سجيناً، وكان عدد كبير قد مات بسبب الجراحات، وكان ممن مات هناك السير هيوغ دي سورل Sorel، والسير انتي دي شيلين Ente de cheligen، والسير غنت دي كور Gent de cors، غير أن السير فيليب أوبيسون Obuisson قد تعافى من جراحاته الشديدة (٢٣٢).

١٣٦ (١٩٧): واستمرت أعمال الحصار أمام سيرينا، وكان الذين في داخلها رجالاً عظماء جداً، وكان لديهم جميع سفنهم التي جاءوا بها إلى قبرص، ولديهم أيضاً اثنين وعشرين من الغلايين، وقد عمدوا إلى تعيين قائد يتولى حماية القلعة وأسوارها هو فيليب شينارت (٢٣٣)، الذي كان أخصاً للسير جوفيان من جهة أمه، وقد تركوا فيها خمسين فارساً، وضعوهم تحت قيادة شخصية من أبوليا اسمه وولتر أكوفيفا (٢٣٤)، وكان السير رتشارد فيلنغر الوكيل قد ذهب إلى أرمينيا مع عدد كبير من الرجال طلباً للعون، كما بعثوا إلى أنطاكية و طرابلس، وقالوا إنهم سوف يقدمون ثمانية ويقاتلون مجدداً ضد القبارصة، وكان في أرمينيا مرض كبير فيما بينهم، وقد عادوا إلى سيرينا دون انجاز أي شيء، وقالوا هناك العديد من الرجال في البر والبحر، وسوف هؤلاء يستهلكون معظم أطعمة القلعة، ولهذا السبب عادوا الصعود إلى ظهور سفنهم و غلايينهم، وأبحروا عائدين إلى صور، و ذهب مع وكيلهم فيلنغر السير عموري برلياس، و السير عموري صاحب بيسان، ابن عمه، و السيرهيوغ صاحب جبلة، وبقي فيلنغر (٢٣٥) وكيلاً في صور، أما هؤلاء الثلاثة فقد ذهبوا إلى أبوليا يطلبون العون من الامبراطور.

١٣٧(١٩٨): و بقي فيليب شينارت القائد في سيرنيا، و معه خمسين فارسا وحوالي الألف رجل من المشاة: من رماة الزنبورك و البحارة، وكان لدية هناك عدداً كبيراً من صناعات الآلات الحربية، و قد صنع بوساطتهم عدداً من أبراج القتال، وآلات رمي الحجارة و المجانيق، و تمكن من حماية القلعة بشكل جيد لوقت طويل، و كانت زوجة الملك في القلعة، و هي التي عرفت باسم الملكة اللومباردية، لأن الامبراطور كان قد أعطاه إياها، و ظلت واقفة إلى جانب الحزب الامبراطوري، و قد توفيت داخل القلعة، و بعد ما توفيت حملها الذين كانوا في سيرينا إلى الخارج، و أعلنوا أنها الملكة و أنها الآن ميتة، و استقبلها الملك و صاحب بيروت، و أقاما مناحة كبيرة من أجل موتها، و أمرا بحملها معلقة إلى نيقوسيا على أيدي فرسان ساروا على الأقدام، ثم أمرا بتنظيم موكب مع جميع شعب نيقوسيا لمرافقتها داخل المدينة حتى الكنيسة الكاتدرائية لنيقوسيا حيث دفنت هناك، و بعد هذا عاد الملك و صاحب بيروت لمتابعة حصار سيرينا، و جلبا إلى هناك قوات عسكرية كثيرة .

١٣٨(١٩٩): و أمر الملك هنري بعقد اجتماع عام لبلاطه ، و قدم شكوى إلى محكمة بلاطه ضد السيرعموري برلياس، و السيرعموري صاحب بيسان، و السيرهيوج صاحب جبلة، و ضد جميع أتباعه الذين وقفوا ضده في المعركة، منذ أن وصل إلى السن القانونية، (٢٣٦) و تم حرمان هؤلاء بموافقة عامة من قبل أعضاء المحكمة، و أعلن عن أن الحرمان يشملهم شخصياً و يشمل ممتلكاتهم، و قام الملك بإعطاء إقطاعاتهم إلى الذين خدموه و ساعدوه، و انزعج القبارصة كثيراً لعدم امتلاكهم لغلايين حتى يتمكنوا من حصار القلعة من جهة البحر، و ترددت غلايين اللومبارد فيما بين سيرينا و بين صور، و قضى الرب بوصول ثلاثة عشر من الغلايين عائداً إلى الجنوبيين، و قد وصلت عبر البحر إلى لياسول خلال عبورين، فقد وصل في العبور الأول أربعة من

الغلايين، و في العبور الثاني تسعة، و توجه صاحب بيروت مسرعاً إلى لياسول، و احتفظ بهذه الغلايين مقابل الأجر المالي من قبل الملك، و جلبهم إلى سيرينا .

١٣٩ : و من ثم حوصرت القلعة من جهة البحر و من جهة البر، و ذلك بوساطة هذه الغلايين و الذين أمكن تأمينهم من قبرص، و جرى بناء الكثير من الآلات في الخارج، و ذلك من قاذفات للحجارة، و مجانيق، و آلات كبيرة، كما جرى بناء برجين عملاقين من الخشب، مع سواتر متحركة كثيرة، لتدفع ضد الأسوار و لتقترب منها، و كانت هناك حملات كثيرة في النهار و في الليل، و كانت هناك منازل قتالية في كل من الداخل و الخارج، و قد جرح العديد من على الطرفين، لأنه قد توفر هناك عدد كبير من القسي العقارة، و تمّ دفع البرجين الخشبيين حتى وصلا إلى الخندق، و امتلك الذين كانوا في الداخل عساكر أفضل من الرجالة مما كان في الخارج، و هكذا تمكن هؤلاء الذين كانوا في الداخل بالقوة من إلقاء النار في البرجين، و قاوموا مقاومة فعالة جداً ، خشية منهم من الايداع بالسجن، أو مواجهة الموت، و امتطى الفرسان في الخارج خيولهم، و اندفعوا بها حتى الخندق، و هناك ترحلوا و دخلوا إلى البرجين الخشبيين اللذان كانا يحترقان، و قد أطفأوا النار بالقوة و أنقذاهما، و أعادوهما إلى الخلف، و قد جرح هناك عدد كبير من الفرسان.

١٤٠ : و تحادث الذين كانوا في داخل القلعة خلال الليل مع قائد السيرجندية الذين كانوا في الخارج و كان اسمه مارتن روسو Rous-seau ، و قد أعطوه كثيراً، و وعده باعداد معاهدة معهم ليقوم بخيانة الذين كانوا في الخارج، و قد اتفق معهم و أعد أنه سيرى الوقت الذي يكون فيه الجيش منهكاً جداً، فعند ذلك سوف يحمل الذين في الداخل أسلحتهم و يخرجون منقذين بقوة، و وقتها سيتولى مارتن هذا و سيرجنديته قتل كل من يستطيعون ممن هو بالخارج، و لسوف يقتلون

بكل سهولة السير هيوج والسير أنسيودي بري، اللذان كانا معسكران على مقربة من القلعة أكثر من الآخرين، و غالباً ماتوليا تفقد حراسة السيرجنديته قرب الأسوار و ملاصق لها، و تمكن مارتن روسو هذا من إلحاق أضرار بالغة، لأنه كان من أكثر الناس معرفة بصاحب بيروت وبأولاده، و كان معهم خلال معظم مدة الحرب، و قد أحسنوا إليه كثيراً ووثقوا به، و كانت إمرة الحرس حول القلعة موكولة إليه كلياً، و لذلك أرسل إلى القلعة ماأراده و تلقى منها ما رغب به.

١٤١ : و بفضل من ربنا جرى كشف أمر هذا الخائن بوساطة رجل جاء من داخل القلعة، و حدث في تلك الساعة أن ذهب مارتن روسو إلى نيقوسيا للحصول على قسي عقارة و تجهيزات أخرى رغب في ارسالها إلى داخل القلعة، و بعث صاحب بيروت فيليب دي نوفار فألقى القبض عليه يوم عيد الفصح من أيار، (٢٣٧) وألقى أيضاً القبض على معلم صانع للقسي العقارة، و كان من أتباع الملك، و قد شارك بهذه الخيانة، و كان قد بعث إلى الذين في داخل القلعة من خلال الجيش كثيراً من القسي العقارة و أسلحة أخرى، و حملها فيليب دي نوفار إلى الجيش الذي كان معسكراً أمام سيرينا، و قد اعترفا بالخيانة أمام محكمة كاملة، و قد حكم عليهم (أي على الخونة جميعاً) بالإغراق أو بالشنق، أما مارتن روسو فقد قذف على أسوار القلعة بوساطة آلة رمي كبيرة، ثم بادر الذين كانوا خارج القلعة إلى نصب آلاتهم أمام الأسوار بدون إبطاء.

١٤٢ ( ٢٠٠ ) : وحدث في أحد الأيام لسوء حظهم العظيم، أن أصيب السير أنسيودي بري بجراحة، و كان آنذاك يدفع بنفسه إحدى الآلات و يحث الآخرين على دفعها، و جاءت إصابته بوساطة رمية سهم عقار، كان طوله قدمان، و قد سحب السهم ورماه بعيداً، و اعتقد بأنه تخلص من الرأس المعدني، لكن لسوء حظه بقي هذا الرأس في طرفه، و قد فقد الكثير من الدماء، لكنه لم يرغب بأن يعلن ولا كلمة عن إصابته

حتى يتم دفع الآلة كما ينبغي، ثم لاحظ الذين كانوا إلى جانبه إصابته وأدركوا مداها فساعدوه حتى عاد إلى مقره، وقد نزل كثيراً حتى صار لونه مثل لون الثلج، وتقاطر جميع أفراد الجيش نحو مقره وكذلك فعل جميع رفاقه، وهم يشعرون بالحزن الكبير، وكان فوق هؤلاء الرجال جميعاً صاحب بيروت، الذي دعاه باسم «أسده الأحمر»، وقد امتلك السبب لذلك، فقد كان (السير أنسيو) قد اهتم أكثر من سواه ونشط في سبيل مصالح الجيش، وكان أهلاً بالمكانة العالية أكثر من غيره، وقد حملوه إلى بيته في نيقوسيا، حيث تمدد في فراشه لمدة نصف سنة أو أكثر، ولم يمكن العثور على الرأس المعدني حتى اليوم الثالث قبل موته، وهكذا نفذ فيه قضاء الرب، وسبب موته حزناً عظيماً للملك وللرجال الجيدين في قبرص أيضاً، وفي اليوم الذي مات فيه كان صاحب بيروت في سورية، ذلك أن قلعة سيرينا كانت قد استسلمت، وسوف تسمع الآن كيف حدث ذلك.

١٤٣ ( ٢٠١ ) : وكما سمعت أمر الملك ورجاله ببناء عدد كبير من آلات الحرب، وبعث بهذه الآلات أمامه، متخذاً الاستعدادات للهجوم القبرصي، وقاتل السير بالين دي إيبيلين ورجاله أمام القلعة، وهاجم صاحب بيروت وأولاده الأسوار من جميع الجوانب، وباتت أمالهم عالية بالاستيلاء على القلعة، لأن الآلات تمكنت من إضعاف الأسوار كثيراً، وكان الذين في الداخل رجالاً منظمين ومقاتلين جيدين، وكانوا يخشون من السجن أو الموت، ولهذا دافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً وبفعالية كبيرة، وقاتل الذين في الخارج بثبات كبير، وكان هناك عدد كبير قد أصيبوا بجراحة، وتلقى أولاد صاحب بيروت هناك كثيراً من الإصابات البالغة، وفي الوقت نفسه كان بين الذين في الداخل قتلى كثيرين وجرحى، وكان المهاجمون يتوقفون عن القتال مع حلول الظلام وينسحبون.

١٤٤ ( ٢٠٢ ) : ولام صاحب بيروت نفسه كثيراً وانتقدها، وقال بصوت مرتفع مسموع بشكل واضح: «يالأسف، لقد أصابني سوء الحظ هذا، في هذا الوقت، وياحزني من الشيء نفسه الذي حدث مرة لرجل من أهل بيتي، فعندما كان الملك عموري، داخلاً إلى مصر، أمر وقتها السير هيوغ دي إيبيلين ( ٢٣٨ )، بمهاجمة مدينة بليس واقتحامها، وهي المدينة التي كان محاصراً لها، وأجابه (السير هيوغ) بأنه سيذهب ويقوم بالهجوم، وعندما وصل إلى الخندق نخس حصانه وحمل، فاندقت رقبة الحصان، وانكسرت ساق عمي، وبادر وقتها جميع رجال الجيش إلى إنقاذه، ونجم عن هذا أضراراً بالغة، لأن عدداً كبيراً منهم قتلوا هناك وجرحوا، وحمل بعد ذلك على الخندق السير فيليب (٢٣٩)، صاحب نابلس الذي كان فارساً جيداً، وكان بالوقت نفسه خاله (عمه)، فلقد حمل بعد حفيده، وهكذا حدث الشيء نفسه، ونجا هذا من الموت بصعوبة بالغة».

١٤٥ : «ثم كان بفضل الرب وإرادته أن تم الاستيلاء على المدينة، ومن ذلك الحين اتخذ الملك عموري ورجاله قراراً إلزامياً بأن لايقوم أي فارس أثناء أدائه لخدمة تتعلق بالاستيلاء على مدينة أو قلعة أو أي مكان، بالقفز إذا لم يستطع حصانه حمله، باستثناء الحالات التي يكون فيها محاصراً أو يدافع عن نفسه ( ٢٤٠ )، وأنا التعميس سيء الحظ الذي يعرف القرار الذي اتخذ لكل واحد من بيتي، قد عرضت اليوم نفسي وأولادي وأصدقائي للموت في الحملة على هذه القلعة التعيسة، التي سوف تستسلم في أحد الأيام من قبل نفسها بسبب المجاعة»، وواساه الذين كانوا هناك وقالوا: «لاتشغل يامولاي بالك ولا تزعج نفسك بهذه الأمور، فالذين قتلوا في الداخل أكثر مما خسرت»، واستمر الحصار وقتاً طويلاً، وكانت النفقات التي بذلت هناك كبيرة جداً، وكانت المبالغ التي دفعت إلى السيرجنديّة وإلى الغلايين عظيمة، وكانت الضرائب التي

فرضها الملك عالية جداً، ذلك أنهم ما كانوا ليشعروا بالأمان ما لم يستولوا على سيرينا .

١٤٦ ( ٢٠٥ ) : وسمع الامبراطور فردريك الأخبار من سورية، ولانعرف فيما إذا كان لم يملك الفرصة للقدوم إلى سورية، أو أنه لم يرغب بذلك، المهم أنه لم يقدم، غير أنه أرسل أسقف صيدا إلى سورية، مع رسائل على درجة عالية من اللطف والإطراء، قائلاً أنه ليس لديه أية مشاعر سيئة نحوهم لما فعلوه، ووعد بالعفو عنهم وأن يمنحهم نعمه، وطلب منهم أن يكونوا مخلصين له ولابنه، زد على هذا أنهم إذا لم يرغبوا بوكيله الموجود في صور في أن يكون وكيلهم، إنه سيوافق على الفور أن يكون واحداً من رجاله من أهل البلاد وكيلاً لهم في عكا، وأن يكون رتشارد فيلنغر في صور، وجاء في هذه الرسائل واضحاً سمة المرشح ليكون الوكيل، فقد كان فارساً كان موجوداً في صور، واسمه فيليب موغاستيل Maugastel ( ٢٤١ )، وكان قليل التقدير، وقيل كان يصنع وجهه مثل امرأة، وأنه كان وثيق الصلة بوكيل صور، وقد خيل للامبراطور أنه بهذه الوسائل يمكن أن يربح إلى جانبه الناس في سورية، وأن يبعدهم عن تقديم العون إلى صاحب بيروت وإلى القبارصة، وهو طبعاً ما أن سيملك الفرصة سوف يقترف أسوأ ما يمكنه، ( ٢٤٢ ) .

١٤٧ : وبعد ما قام أسقف صيدا، الذي جاء إلى عكا بالتباحث حول عدد من الأمور وبعد إجراء ترتيبات كثيرة، اتفق صاحب صيدا والقسطلان ( ٢٤٣ )، حول هذه الأمور، وجعلا الناس يأتون إلى كنيسة الصليب المقدس، حيث وجد الإنجيل، وبينما كانوا ينتظرون القيام بأداء اليمين، حدث أن صاحب قيسارية الشاب، الذي كان ابن أخت مولاي صاحب بيروت، كان قد جاء من قبرص لقضاء أعمال خاصة به، فسمع بهذا الشيء، فجاء مسرعاً إلى عكا، ودخل في الساعة التي كان اليمين سيتم أخذها بها إلى الكنيسة الكاتدرائية للصليب المقدس، وأمر بضرب

ناقوس « الكومونة»، وعندما سمع رهبان القديس أندرو صوت الناقوس ،  
بادروا إلى حمل السلاح ( ٢٤٤ )، وصرخوا جميعاً: «إقتل، إقتل» .

١٤٨ : فرآهم أسقف صيدا فهرب خوفاً منهم إلى بيت أسقف عكا،  
وتخفى في البيعة، ولولا قدوم صاحب قيسارية، لكان أسقف صيدا قد  
قتل في ذلك اليوم، وكذلك صاحب صيدا، والقسطلان أيضاً، غير أن  
صاحب قيسارية استرد الهدوء، وقادهما معه إلى خارج المكان، وبادر على  
الفور إلى إعلام خاله صاحب بيروت بجميع هذه الأشياء، وكان آنذاك  
في قبرص مشغولاً بحصار سيرينا ( ٢٤٥ )، وعلى الفور تخلى صاحب  
بيروت عن الحصار، وعين مكانه ابنه الأكبر السير بالين، ورغب الملك  
هنري أن يصطحب معه فيليب دي نوفار، لكن السير بالين لم يسمح  
بذلك .

١٤٩ : وذهب صاحب بيروت إلى عكا، وأجرى ما لزم من ترتيبات،  
وأمر بتجديد أيمان جميع البوليان، وأنه من جديد هو المقدم، وبعث  
أسقف صيدا إلى صاحب بيروت يلتمس منه باسم الرب ولأجله ولأجل  
شرفه وللمنفعة أن يسمح له بالقدوم إليه ليتحدث معه، ورد عليه  
صاحب بيروت أنه باسم الرب عليه أن يقدم، وأرسل إليه (الأسقف)  
وجلب إليه إلى هناك، وما أن مثل (الأسقف) بحضرة الإيبليني حتى تولى  
قراءة رسالة من الامبراطور، بعث فيها (الامبراطور) بتحياته وتطميناته .

١٥٠ ( ٢٠٧ ) وقال الأسقف: « لقد ورد في هذه الرسائل وجوب أن  
تصدقني، فقد بعث إليك الامبراطور رسالة يقول فيها إنه نادم كثيراً لما  
جرى بينك وبينه، وأنه سوف يتصرف في المستقبل نحوك ونحو الذين  
يتعلقون بك بأن تصبحوا أغنياء، وذوي أساسات ثرية، لكنه يتمنى  
عليك الاستجابة لنقطة واحدة فيها تشریف له، بها لن يكون بمقدور  
الناس القول بأنك قهرته، والتشريف الذي يطلبه منك أن تقدم إلى  
مكان يبدو أنه خاضع له ومن أملاكه، وأن تقول ببساطة مطلقة، وفق

الطريقة التالية أوفوق طريقة أخرى: « إنني أضع نفسي تحت رحمة الامبراطور بحكم أنه مولاي»، وعلى هذا رد مولاي صاحب بيروت قائلاً: « سيدي الأسقف، عندما أنتهي من كلامي سوف أجيب على طلبك، لكن قبل ذلك سوف أضرب لك مثلاً، وهو حكاية كتبت في كتاب حكايات رينارد، وهي بتقديري سوف تنطبق تماماً على هذه المناقشة التي افتحتها» .

١٥١: «لقد حدث في غابة كانت كثيفة الأشجار، ومليئة بجميع أنواع الحيوانات، أنه كان هناك أسداً عظيماً، وقد كان شاحباً جداً، ومريضاً، ومضطرباً، وكان في أحد الأيام مستلقياً أمام مدخل كهفه، فرأى يمر أمامه مجموعة كبيرة من الوعول الفتية العائدة لذلك الموسم، وقال الأسد لخاصه أهل بيته: إذا أنا لم أكل ذلك الوعل الشاب الذي سار أمام الآخرين سوف أموت، فهذا ما أخبرني به الأطباء، لذلك بعث إلى الوعل وتوسل إليه باسم الرب أن يقدم ويتحدث معه، لأنه مريض جداً، وهو يموت، واستجاب الوعل وذهب إليه لأنه مولاه، وما أن دخل إلى الكهف حتى بادر الأسد مسرعاً للإمساك به، وقفز عليه وضربه على رأسه بكفه فمزق جلده حتى مادون جبهته، وكان الوعل قوياً وسليماً، وكان الأسد ضعيفاً ومريضاً، لذلك وقع إلى الخلف نتيجة ضربته التي سددها، وهرب الوعل ورأسه ينزف وقال بأنه لن يدخل إلى بلاطه ثانية، وفي الوقت نفسه تعافى الوعل من جراحاته» .

١٥٢: « وحدث بعد هذا بأمد طويل، أن الأسد بعث إلى الوعل وقال أنه بعون الرب قد فكر باستقباله بكل ترحاب وسرور عندمدخل بيته وهو يريد أن يعانقه، وأنه لسوء حظه حدث أن لمست مخالبه رأسه، وأن ذلك حدث على الرغم منه، وبسبب ضعفه ووقوعه أصابته مخالبه، وترجاه الآن باسم الرب أن يأتي إليه، ولقد بذل كثيراً من الالتماسات وترجاه طويلاً حتى أنه ذهب إليه ثانية، وخرج الأسد لاستقباله، وقفز

للإمساك به، وأصابته مخالبه وجرحته حتى ذيله، ولقد أصابه في ظهره كله، وكان هناك في الظهر جرحين عميقين، وقفز الوعل بكل عنف لإصابته بالجراحة، وكان الأسد ما يزال ضعيفاً، وسقط نتيجة لضربته، وهرب الوعل، وإثر هذا ظل مريضاً من جراحاته، لمدة عام تقريباً.

١٥٣ : «وفي نهاية العام أرسل الأسد إليه ثانية واحداً من باروناته، وأقسموا له كثيراً وتوسلوا أكثر إلى حد أن الوعل خدع وقدم مجدداً إلى البلاط، وكان الأسد قد تحسن وأنشأ حول نفسه حاشية خاصة به، وأخذ أفراد الحاشية الوعل وقتلوه، وأصدر الأسد أوامره بوجوب سلخه، ووضع التوابل له وتنظيفه لأنه رغب في أكله، وأكل الحيوانات من اللحم، أما أمثال زنجريم ورينارد فقد شغلوا أنفسهم بإعداده، وأدخل رينارد فمه وبوزه في داخله وأخذ القلب وأكله، وقد خاف بقية الحيوانات من هذه الفعلة كثيراً، ولاحظ الأسد ذلك، وحاول - كخائن - بذل غاية جهده لتسويغ عمله بوساطة كلماته، فقال: لا تظنوا أيها السادة أنني قد قتلت هذا الوعل غدراً أو خيانة، بل إنني فعلت ذلك لشفاء نفسي، ذلك أن جميع الأطباء قالوا بأنني لا يمكن أن أعيش إذا لم آكل قلب هذا الوعل».

١٥٤ : «ولم يتمكنوا من العثور على القلب لأن رينارد كان قد أكله، وأقسم الأسد بأن رينارد قد فعل ذلك، لأن لحيته كانت ملوثة بالدم، وأشار الجميع نحوه بأصابعهم، وحكم الجميع بوجوب موت رينارد لفعلته هذه، وأعلن رينارد على مسمع الجميع بأنه كان مطيعاً لأوامر الملك، ووضع نفسه تحت حكم المحكمة، وهناك قال رينارد: أيها السادة قدم الوعل مرة إلى البلاط، وذهب عائداً مبتعداً برأس ينزف، وجاء مرة ثانية وغادر بجرحين بليغين في ظهره، وجاء بالمرّة الثالثة ليموت وهو ضعيف ذليل مثل الذين بلا قلب، لأنه لو كان لديه قلب لما جاء للمرّة الثالثة، ويقول المثل: الشيء المفقود هو الذي لا يمكن إيجاده، فالوعل لم يكن لديه قلب، وأنا لم أكله، وذقني ملوثة بالدم

بسبب سلخي له وفتحني لجسده، وأنا ألتمس من كل واحد هنا في هذا المكان، باسم الرب، ومن أجل نفسه، أن يحكم علي، وهنا قال الجميع بصوت واحد بأن الوعل لم يمتلك قلباً، وهكذا جرى إطلاق سراح رينارد» .

١٥٥ : وتابع صاحب بيروت يقول : « وأنا أقول لكم يا سيدي الأسقف إن الذي حدثتكم به مثل ينطبق عليّ تماماً وعلى الامبراطور، فهو الأسد وأنا الوعل، وقد تولى خداعي مرتين، وكانت المرة الأولى في لياسول، وقد عدت منها برأس ينزف، وكانت المرة الثانية عندما تركت قلعة ديودامور، وجئت إليه، فقد قام على الرغم من جميع الاتفاقيات وضدها فاحتفظ بالقلع وبقبرص جميعها، وباع الملك وقبرص إلى أعدائي، ومثل هذا الجرحين البليغين في ظهري، وإذا ما قمت الآن بوضع نفسي تحت رحمته، أعتقد أنني سوف أقتل مثلما حصل للوعل، ولسوف يحكم عليّ بشكل مؤكد أنني كنت بلا قلب، ولهذا أقول لك أيها السيد الأسقف، وبودي أن يعلم جيداً بأنه سوف لن يضعني تحت سلطانه، فضلاً عن هذا، إذا ما حدث لسوء الحظ، ومثلت أمامه، وهو يمتلك القوى كلها، وأنا ليس لدي لأولاد، ولا أصدقاء، ولا قوة تتجاوز إصبع يدي الصغير، فبهذا الأصبع سوف أدافع عن نفسي حتى الموت» وهكذا أنهى كلماته .

١٥٦ ( ٢٠٩ ) : وكان صاحب بيروت قد أسس نفسه وأوضاعه بشكل جيد في سورية، وقد ترك في سورية محله ابن أخته صاحب قيسارية، وعاد على الفور إلى قبرص، ودام حصار قلعة سيرينا لمدة أكثر من عام، وعانى الذين كانوا في الداخل من أشياء كثيرة، وعرفوا أنه من غير الممكن وصول عون إليهم من عند الامبراطور، وعرفوا بأن وكيل صور كان يقوم بإبرام معاهدة، ولهذا تحدثوا عن المصالحة، وتولى أرنيس صاحب جبلة وفيليب دي نوفار إبرام الصلح، ونتيجة لذلك سلموا

القلعة والأسوار وجميع الأسلحة والمؤن والعتاد الذي جلبوه ووجدوه في الداخل ( ٢٤٦ ) .

١٥٧ : وحررهم فيليب دي نوفار، وأمن لنقلهم ما احتاجوه من غلايين ومراكب ، وجعلهم يذهبون إلى صور آمنين سالمين هم ومقتنياتهم، وقضى الاتفاق أنهم ما أن يصبحوا في صور، حتى يتوجب على صاحب بيروت المضي إلى عكا، وأن يأخذ جميع الأسرى الذين أسروا في المعركة ومايزالون أحياء، وعليهم تسليمه جميع رجاله الذين أسروا في قلعة إيمبرت، والذين كانوا في صور، وتم تنفيذ ذلك حسبما قيل، فقد أخذ الأسرى معه إلى عكا ( ٢٤٧ )، وكان قد جرى الإعداد من قبل بوجوب أخذ الأسرى من كلا الطرفين إلى وسط الطريق بين صور وعكا، وهنا جرى تبادل أسراهم فيما بينهم، وعاشت قبرص إثر هذا بسلام، لكن سورية بقيت في أوضاع سيئة، لأن السير رتشارد فيلنغر وأخوانه وعدد كبير من اللومبارد قد بقيوا في صور ( ٢٤٨ ) .

١٥٨ ( ٢١٢ ) : وبعد أربع سنوات من عقد المصالحة، وكان هذا في سنة ١٢٣٦ ، قام مولاي جون دي إيبيلين بالاعتراف، فقد كان السيد الجيد لبيروت، الذي أدرك جيداً فضل ربنا عليه ونعمته حيث منحه مجداً وتشريفاً عظيماً، وجاء اعترافه بسبب الوحش الذي انقضض عليه، وقام بهذا الاعتراف بشكل نظامي حيث عجب الناس كثيراً من ذاكرته العظيمة، وقد تاب من جميع ذنوبه ونال المسامحة، وقد تاب من كثير من الأشياء التي لايعدها الناس ذنوباً، وقد سدد جميع ديونه لأنه امتلك في ذلك اليوم مداخيل كبيرة، وذلك بالاضافة إلى إقطاعاته، وأعطى الجميع في سبيل الرب، وفي سبيل خلاص روحه، وأعطى ذلك بيديه مع ذكرى طيبة، ولقد منح الكثير من الإقطاعيات إلى أولاده، وأمر بأن يكونوا تابعين لأخيهم الأكبر، ومتملكين للإقطاعيات منه .

١٥٩ : وبعد هذا جعل من نفسه راهباً من رهبان الداوية، وذلك

حسبها كان قد نذر، وقد عارض أولاده ذلك معارضة كبيرة، وشعر جميع شعب البلاد بأسف عظيم، لهذا السبب، لكن ذلك لم يجد شيئاً، لأنه دخل في رهبانية الداوية على الرغم من معارضتهم، وقد فعل ذلك بكل هدوء، وحمل نفسه وتوجه إلى عكا، ولم يبق طويلاً في هذه الرهينة، وبموته ختم حياته بشكل يجعل الانسان يندهش ويصعب عليه أن يصدق حقيقة ما شهده وتلمسه، وعندما كان يحتضر ويسلم الروح طلب إحضار صليب ووضعه أمامه وحمل فيليب دي نوفار الصليب، وأمسكه بيديه واضعاً إياه أمامه، وقد قبل قدمي ربنا يسوع المسيح، وقال بقدر ما استطاع: « في عهدتك، وأمرك، أضع روحي»، وهكذا أسلم الروح إلى الرب، ولم يتغير جسده لدى موته، وإذا كان الإنسان يؤمن بأن الأرواح الطيبة تذهب أمام الرب، يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، بأن روحه قد مضت من هناك إلى الفردوس، وبقي الآن ابنه السير بالين الذي تحكم بذاته وبتصرفاته وكان نشيطاً، صاحب بيروت في مكانه، ولقد توفر لديه أخوان طيبون، وأولاد عم وأولاد خال، وأصدقاء جيدون ساعدوه مساعدة مفيدة .

١٦٠ ( ٢٢١ ) : وكان اللومبارد وقتذاك في صور، وقد عاشوا هناك لبعض الوقت بهدوء وسلام، ونجح رتشارد فيلنغمارشال الامبراطور وقتها، وضمن، واجتذب إلى حزبه رهبان مشفى القديس يوحنا، كما كسب اثنين من أهم برجاسية عكا، وكان لهما سلطات واسعة ونفوذ قوي على شعب المدينة، وكان اسم أولهما جون فالين Vaalin، واسم الآخر وليم دي كونشي Conches، وحدث في ذلك الوقت في عكا أنه لم يكن هناك فيها أحد من حزب الإيلينيين، فيما عدا واحد فقط كان اسمه السير فيليب دي مونتفورت ( ٢٤٩ )، وكان قد قدم عبر البحر عندما جاء ملك نافار إلى عكا، وقد تزوج من سيدة نبيلة من البلاد، عرفت باسم سيدة تورون ( ٢٥٠ ) ( تبينين )، ولزواجه منها دعي باسم صاحب

تورون، وكان عن طريق أمه ابن خال لواحد ألماني اسمه السير بالين الأصغر، صاحب بيروت، وابن خال أيضاً لأخوانه ( ٢٥١ ) .

١٦١ : وكان السير بالين دي إيبيلين صاحب بيروت قد عاد في ذلك الحين من جيش ملك نافار، بعدما أمضى فيه وقتاً طويلاً، وبعدهما صنع لنفسه اسماً عظيماً، وقد أقام إقامة مؤقتة في بيروت، وكان أخواه : السير غي والسير بلدوين - اللذان حققا فيما بعد مكانة هامة جداً - آنذاك في قبرص، وكان أخوهما السير هيوج، وكذلك صاحب قيسارية الأصغر قد انتقلا من هذا العالم، وسبب انتقالهما هذا حزناً وخسارة كبيرة لجميع أصدقائهما وإلى المملكتين، وكان أخوهما السير جون صاحب فوغيا آنذاك في أرسوف ( ٢٥٢ )، ويودس دي مونتبليارد القسطلان، وهو الذي تزوج من ابنة خاله ( ٢٥٣ )، وهو الذي تسلم منصب الوكيل في عكا ( ٢٥٤ )، لقد كان آنذاك في قيسارية هو والداوية في الجيش مع قسم من فرسان المملكة، ولهذا كله كان بإمكان رتشارد فيلنغر هذا، أن يقوم بمغامرته وهو كبير الاطمئنان .

١٦٢ ( ٢٢٢ ) : وهكذا كان أن حدث مايلي: بعدما تجسس وكيل صور السير رتشارد فيلنغر، واكتشف الكثير، ورتب الأمور مع البرجاسيين، المشار إليهم أعلاه، انطلق وجاء بشكل سري إلى عكا، وكان ذلك خلال الليل، وقد دخل إليها من باب خلفي مموه كان موجوداً في السور، وقاده هذا الباب إلى حديقة المشفى، ومن هناك مضى مباشرة إلى مقر فرسان مشفى القديس يوحنا، وتم استقباله هناك، ومكث لمدة يوم وليلة، وما يزال الباب الخلفي يدعى «باب مدخل الشيطان»، وذهب البرجاسيان المتقدم ذكرهما إلى مقر فرسان الاسبتارية، وتشاورا معه، ثم مضيا بعد ذلك يتجولان في شوارع المدينة يبحثان عن من سوف يقسم لهما، وقد جعل كل الذين أبدوا الرغبة في تصديقها يقسمون أن يكونوا قيد أمر الوكيل الذي جاء من صور.

١٦٣ : وكشفت أخبار أفعالهما من قبل واحد من الذين أقسموا لهما، وبذلك عرف فيليب دي مونتفورت بأخبارهما، وكان هناك هياج عظيم في المدينة، وقد انطلق حاملاً سلاحه ومعه أكبر عدد من الرجال استطاع تجنيدهم، وقام الجنويون والبنادقة الذين لم يجبوا الامبراطور أو أتباعه، فتسلحوا على الفور، وخلال ساعة من الزمان حصنوا شارعهم، ونشط السير فيليب دي مونتفورت فاستطاع إلقاء القبض على البرجاسيين، ووضعها بالأغلال، وبعث على الفور بخبر هذه الأوضاع إلى صاحب بيروت، وجاء صاحب بيروت مسرعاً، وجلب معه جميع قواته وعدداً كبيراً من سيرجندية الجبال، ولقد قدم مسرعاً جداً ومرّ أمام أبواب صور، وعلم رتشارد فيلنغر الوكيل - الذي كان متخفياً في عكا في داخل مقر الاستبائية - بقدوم صاحب بيروت، وباعتقال صديقيه، فهرب على الفور أثناء الليل من خلال الباب الخلفي المموه، وعاد إلى صور، وقام بجهد قليل للتصدي لصاحب بيروت، وقد أخفق في ذلك .

١٦٤ : وعندما دخل صاحب بيروت عكا، غدت المدينة على الفور خاضعة لسلطانه، وقد فهم بأن الاستبائية كانوا طرفاً في هذه العملية، فحاصر المشفى من جميع الجهات وضغط عليها عن قرب عظيم، وألحق بها أضراراً فادحة، وقد تمكن من أن يفعل ذلك بسهولة لأن المقدم الأخ بيتردي فيلابرايد ( ٢٥٥ ) Villebride، وهيئة قيادة الاستبائية كانوا آنذاك في المرقب بسبب الحرب التي كانت ناشبة آنذاك مع سلطان حلب ( ٢٥٦ ) من أجل السيطرة على تخوم المرقب ومدينة جبلة، وعلم آنذاك صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر الوكيل، قد هرب من مقر الاستبائية وذهب إلى صور، وعاد القسطلان ورجال بلاده الذين كانوا في قيسارية من الجيش وصاروا تحت إمرة صاحب بيروت، وهكذا مكثوا مدة طويلة في عكا .

١٦٥ ( ٢٢٣ ) : وحاصر صاحب بيروت بيت فرسان القديس يوحنا

في عكا لقراية ستة أشهر ( ٢٥٧ )، وهكذا ما من إنسان سمح له بالدخول إلى البيت والخروج منه من دون أن يكون قادراً على أن يفعل أي شيء أكثر، لأنه وجد أيضاً في البيت عدد كبير من الرجال الجيدين الذين كانوا يدافعون عن أنفسهم فيه، وكان في البيت عدد ضئيل من الاستتارية لأن المقدم وهيئة القيادة كانوا بعيدين مسافرين، حسبما ذكرناه أعلاه، وبناء عليه قرر المقدم وهيئة قيادة الاستتارية واتفقوا على إيقاف حملتهم ومن ثم العودة إلى عكا، وفعلوا ذلك وعسكروا خارج المدينة في الكروم الجديدة.

١٦٦ : وتدخل الأصدقاء المشتركون وتوصلوا إلى عقد صلح فيما بين الاستتارية وصاحب بيروت، ومن ثم جرى التخلي عن حصار الاستتارية، حيث أعلن صاحب بيروت عن نفسه مخطئاً جداً بحق الاستتارية بسبب قيامه بهذا العمل وترجى من أجل المسامحة، وأعلن أمام الناس، بأن بعض الناس الذين لا يحبون الاستتارية جعلوه يفعل ما فعله بإعطائه صورة وبجعله يعتقد بأن الأشياء التي رغب رتشارد فيلنغر القيام بها في مدينة عكا مع جميع الاضطرابات التي تمت، قد جرى ترتيبها من خلال بيت الاستتارية، وبفضل مساعدته وتأييده، حيث كان رتشارد فيلنغر باقياً في داخل بيت الاستتارية، ولهذا السبب حاصر هذا البيت، وبناء عليه إنه يمتلك الامكانات العظمى للأسف .

١٦٧ : ثم قال مقدم الاستتارية لصاحب بيروت : « عليك يا صاحب بيروت أن لاتصدق أن يقوم بيت الاستتارية بمثل هذا العمل الخطير الكبير أو أن يكون شريكاً، عندما تكون هيئة قيادتنا بعيدة عن عكا، وعلى مسافة عظيمة، وحسبنا كنا مشغولين خارج المرقب، ولقد كنا قد تركنا عدداً قليلاً من الرهبان في البيت في عكا، وذلك كما يعرف كل واحد، لابل حتى في هذه الحالة من المؤكد أن أخواننا الذين كانوا آنئذ في البيت لا يمكن أن يشاركوا بأية صورة بمثل هذه الأشياء، ولهذا

السبب ينبغي عدم اتهام بيت الاستتارية بأية تهمة قذرة، أو أن يوصموا بمثل هذا العار الكبير حتى يحاصروا لمثل هذا السبب، وعلى كل حال، بما أن المسائل قد سويت بما حقق الرضا لكل من الطرفين، فإن هذه الأشياء التي مضت يتوجب نسيانها كلياً».

### كيف غادر رتشارد فيلنغر صور ليذهب عبر البحر

١٦٨ ( ٢٢٤ ) : وحدث في هذه الآونة أو قبل ذلك بوقت قليل أن أرسل الامبراطور فردريك رسالة إلى السير رتشارد فيلنغر، الذي كان وكيله في صور، بوجود حضوره إلى عنده، ذلك أنه يرغب في أن يرسل إلى سورية واحداً يحل محله، وغادر السير رتشارد المتقدم الذكر وسافر من صور، وكان معه أخوه السير هنري، وابن أخته جون أوف سورنتو Sorrento، وزوجاتهم وأولادهم وحواشيهم وآل بيوتهم ( ٢٥٨ )، وقد صعدوا جميعاً ظهر سفينة كبيرة، وسافروا عليها، وعندما غادر رتشارد فيلنغر ترك أخاه لوثير في مكانه، ومعه ما يكفي من الرجال والسلاح، فهو كان سيتولى حكم مدينة صور، لأنه كان مارشال مملكة القدس من جهة الامبراطور ( ٢٥٩ )، وكان سكان صور يكرهون اللومبارد كراهية عظيمة، ولهذا جاء أربعة منهم ( ٢٦٠ ) إلى صاحب بيروت وعرضوا عليه تسليم مدينة صور إليه، وأعدوا معه الترتيبات، وقد عقد مجلساً استشارياً هناك حول الموضوع مع السير فيليب دي مونتفورت، صاحب تورون، ومع فيليب دي نوفار الذي كان وثيق الصلة به وقريباً جداً منه، وقرر الاجتماع مايلي : أن يتوصل إلى اتفاقية مع هؤلاء الرجال، ثم تلقى اليمين من هؤلاء البرجاسية الأربعة من أهل صور .

١٦٩ ( ٢٢٥ ) : وفكر فيليب دي نوفار ملياً في هذه المسألة خلال الليل، ثم إنه ذهب إلى مولاه، صاحب بيروت وقال له: «لقد فكرت يامولاي حول شيء يحميك من الملامة، فأنت تعرف أنك أنت مع الآخرين من أهل مملكة القدس قد أدبت يمين الولاء للامبراطور على

أساس أنه الوكيل عن ابنه الملك كونراد، ولقد حافظت بأمانة وصدق على يمينك دوماً بينما حافظ هو بشكل سيء على يمينه كما هو واضح (٢٦١)، وأعلمك أن الملك كونراد قد وصل إلى السن القانونية (٢٦٢)، ولهذا السبب قد تحررت أنت من الامبراطور، وسوف يكون من المفيد جداً أن يعرف هذا الوضع كل إنسان قبل أن تستولي على صور أو قبل أن تأخذ منه الوكالة، فوقيتها يظل الناس ينادون بمنع الامبراطور وبحرمانه من صور كوكيل، وسوف تكون قادراً أن تمتلك سبيلاً جيداً ومشرفاً إذا ما رغبت بمثل ذلك» .

١٧٠: «لأن العادة في مملكة القدس إن أكثر الناس شرعية في وراثة السلطة، هو الأكثر ظهوراً، ويتسلم هذا الميراث السلطوي بحق حتى يأتي واحد أكثر شرعية منه بوراثه السلطة، ولديك في هذه المدينة السيدة الملكة أليس، أم الملك هنري، التي هي ابنة أختك الألمانية، وهي أكثر الناس شرعية ظهوراً في مملكة القدس بوراثه السلطة، لأنها ابنة الملكة إيزابل، التي هي نفسها الوريث الشرعي للمملكة بحكم كونها ابنة الملك عموري، وصحيح أن الملك كونراد منحدر من الأخت الأكبر، وأنه لو كان حاضراً لاستحق الميراث، لكن حتى يقدم هي الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً (٢٦٣)» .

١٧١: «ولهذا السبب أشير عليك أن تقوم بجمع رجال مملكة القدس، وأن تمثل الملكة أليس أمامهم، وأن تطالب بمملكة القدس بموجب الحق المبين أعلاه، وحسبما بينت كيف يمكن التخلص من الامبراطور والانفصال عنه، وبهذا تعد الترتيبات لوصول الملكة إلى سلطانتها، وعندما تطالب بصور، إذا لم تُسلم إليها، أو لم تخضع لأوامرها، أو تدخل في خدمتها، سوف تقوم - إن شاء الرب - بموجب الاتفاق الذي عقدته مع أهل المدينة، بالاستيلاء على مدينة صور بحق شرعي كامل وبشرف ومجد لذاتك، وسوف تطرد اللومبارد من سورية» .

١٧٢ : وعندما سمع صاحب بيروت هذا العرض المنطقي، كان مسروراً جداً به، ووافق تماماً عليه، وبعث على الفور وراء مولاي فيليب دي مونتفورت صاحب تورون، وتولى فيليب دي نوفار - بناء على أوامر مولاه صاحب بيروت - فأعاد على مسامح صاحب تورون حكاية جميع ما قاله من قبل، ووافق (صاحب تورون) على الفور، وأشار بالقيام بهذه المحاولة، وكان واثقاً بها، وقد توفرت لديه أسباب جيدة لذلك، وكانت كافية بالنسبة له، لأنه كان عاقلاً جداً، وصاحب رأي صائب، وقد أخبرنا على الفور فيليب دي نوفار بوجود ذهابه إلى الملكة أليس وإلى السير رالف دي سوا سون Soissons، الذي كان باروناً فرنسياً، وكان زوجها (٢٦٤).

١٧٣ : وأخبرها فيليب دي نوفار بما رغب به الشخصيتان المذكورين أعلاه، واللذان كانا معاً أبناء خال ألمان للملكة أليس، ولقد ابتهجا لهذا الترتيب كثيراً، وقالوا لفيليب دي نوفار بأنها يرغبان في أن يكون هو السكين، وهما اللحم، حتى يستطيع أن يقسم ويوزع كيفما يشاء، وبحث فيليب في المسألة، وذهب وعاد حتى تمّ إعداد كل شيء وترتيبه، وكانت عقود الاتفاقات المبرمة كثيرة، وكان بين الأشياء التي جرى الاتفاق عليها وأدوا الأيمان حولها، أن يقوم صاحب بيروت وكذلك صاحب تورون بالسيطرة على جميع قلاع المملكة وتجهيزها وشغلها، حتى يأتي الملك كونراد إلى هناك، وكانا قادرين على القيام بهذا، وهو ما ينبغي القيام به، وقام فيليب دي نوفار بالتعاون مع برجاسي اسمه فيليب دي بوديون Bauduyn، الذي كان عاقلاً، ووثيق الصلة مع صاحب تورون، ولقد قاما فيما بينهما برسم خطوط الاتفاقيات ومن ثم كتابتها بشكل سري جداً، حتى أن ما من كلمة واحدة قد عرفت في أرجاء البلاد.

١٧٤ (٢٢٦): وتدبر صاحب بيروت وصاحب تورون عقد اجتماع لجميع إقطاعيي عكا وأعيانها، في بيت بطريرك القدس (٢٦٥)، وكان

الجنويون والبنادقة والبيازنة هناك (٢٦٦)، وجميع الرهبانيات الدينية العائدة للمدينة أيضاً، وقدمت الملكة أليس زوجها مع رالف دي سواسون إلى الاجتماع، وتولى فيلب دي نوفار الذي كان مستشارهما دعواتهما، وطرح بكل وضوح جميع الأسباب والإدعاءات التي سمعتها من قبل، وخلاصتها : إن الملكة أليس الوريث الشرعي الأكثر ظهوراً، وهي التي تستحق تسلم سلطان مملكة القدس، وبناء عليه إنها قد طلبت ومعها زوجها، أن يقدم الحضور الولاء والخدمات المتعلقة بالملكة، ثم إنها عرضاً الحفاظ على الاستخدامات الجيدة وعلى العادات الطيبة للمملكة .

١٧٥ : واعتزل الذين كانوا من أهل المملكة جانباً، واستدعوا فيليب دي نوفار للتشاور معهم، وسألوه الرأي والاجتهاد الممكن اعتماده للقيام برد، وقد أوضح لهم جميع الأسباب التي تقدم وسمعتها، وبين كيف أن الملكة أليس هي أكثر الورثة الشرعيين ظهوراً للسلطة، وكيف أنهم انفصلوا عن الامبراطور فردريك وتحرروا من التبعية إليه، لأن ابنه كونراد قد وصل إلى السن القانونية، ونصحهم بشكل جيد وأشار عليهم بوجود وضع الملكة أليس في موقع المتسلم لسلطة مملكة القدس، لأنها أوضح الورثة الشرعيين حقاً بالمملكة، وأنه يتوجب عليهم تقديم الولاء والخدمات إليها، بشرط أنه ما أن يقدم الملك كونراد إلى مملكة القدس، حتى يبادروا إلى التخلي عن الارتباط بالملكة أليس، ووقتها يحولون إليه وينقلون كل ما هم مدانون به إليه ومتوجب عليهم نحوه.

١٧٦ : ووافق الحضور جميعاً على رأي فيليب دي نوفار، والتمسوا منه أن يقوم شخصياً بتقديم جوابهم إلى الملكة أليس، وقد تولى تنفيذ ذلك على الفور وبكل رغبة وطواعية، وقد قيل له بمثابة إيحاء بأنه طالما هو نفسه عرض المطالب والإدعاءات، وقدم أيضاً الجواب، عليه أن يعطي القرار، وإثر هذا جعلت الملكة أليس متحكمة بمملكة القدس، وكان

أول من قدم لها الولاء صاحب بيروت، وتلاه صاحب تورون، ومن بعدهما جميع الفرسان الآخرين العائدين لعكا، وقد حدث هذا في سنة ١٢٤٢ ( ١٢٤٣ ) .

١٧٧ : وبفضل ما حدث نال فيليب دي نوفار التشريف والثروة، لأن الملكة أليس أعطته مائة دينار إسلامي بمشابة إقطاع، وأمرت بتسديد جميع ديونه التي بلغت ألف مارك فضي، وصار فيليب الوكيل والمعلم في كل شيء ( ٢٦٧ )، وتمكن بنجاح أن يجمع الإيجارات حتى أنه استطاع في ثلاثة أيام أن يدفع إلى المرتزقة وللغلايين التي كانت ذاهبة إلى حصار صور، لأن الملكة أليس كانت قد طالبت بصور، ورفض اللومبارد استسلامها، وحشد السير رالف سواسون، زوج الملكة أليس المتقدمة الذكر هو ومولاي صاحب بيروت وصاحب تورون عدداً كبيراً من المرتزقة والغلايين المسلحة، وجلب فيليب دي نوفار سفينة كبيرة لهؤلاء السادة، وكانت مشحونة بشكل جيد بعدد من الرجال المسلحين، وذهب الجنويون والبنادقة إلى هناك، وتوفر هناك عدد كبير من الرجال.

١٧٨ : وانطلق الجيش في أثناء الليل وزحف براً وبحراً، وحاصر صور، ورتب صاحب بيروت الأمور بأن تحدث مع بعض الذين كان قد اتفق معهم على تسليم المدينة، حسبما ذكرنا من قبل، وهؤلاء لم يتمكنوا من المتابعة وفق الطريقة التي تمّ الاتفاق عليها لتسليم المدينة، غير أنهم أخبروه بوجود باب خلفي قرب شارع الجزائريين، على الجانب باتجاه البحر، وأنه إذا ما أراد المرور مع جيشه على طرف الشاطئ، وأن تتمكن غلايينه من الاقتراب من سلسلة الميناء، فوقتها سيفتحون الباب الخلفي، ويفكون سلسلة الميناء، وهكذا يمكنه الدخول بأمان، وعندها سيقوم الذين في داخل صور من حزبه بحمل أسلحتهم والثورة على رجال الامبراطور، وعندما سمع صاحب بيروت بهذه الخطة وعد بتنفيذها، غير أنه أصر على أن يقوم الذين بالداخل بالتخلي عنه، وأخبره

البرجاسية بردهم أنهم سوف ينفذون الخطة بدون إحباط .

١٧٩ : وعبأ صاحب بيروت جيشه وصفه على اليابسة وفي البحر، ورتب إشارات بينه شخصياً وبين الذين كانوا على اليابسة، وردد البرجاسية الذين تحدثوا مع صاحب بيروت كل ما حدث على مسامع البرجاسية الآخرين، الذين كانوا متفقين معه، وعندما رأوا أن الفرصة قد تهيأت أعطوا الإشارات، وعندما رؤيت هذه الاشارات أعطى صاحب بيروت نداء إلى السلاح، وأصدر إلى الذين كانوا على ظهور الغلايين الأوامر بالاقلاع، وبدخول الميناء مهما كان الثمن، حتى وإن كلفهم التنفيذ فقدان حياتهم، ثم إنه ركب وزحف هو ورجاله ( ٢٦٨ ) إلى المكان الذي كان رفاقه ينتظرونه فيه قرب الباب الخلفي بجوار شارع الجزارين، وكان البحر عالياً، ووقعت الخيول على الصخور، وكان عدد كبير من الناس، لهذا عرضة لخطر الموت، وسقط الذي حمل العلم في البحر، وكان فارساً شاباً، وابناً لفيليب دي نوفار اسمه بالين، ونال اسمه هذا من صاحب بيروت الذي كان عرابه، وقد وصل إلى الأسفل وتمكن من استرداد العلم ومن ثم رفعه خفاقاً في البحر، وحمله بعد هذا حتى الاستيلاء على المدينة .

١٨٠ : ودخل صاحب بيروت ورجاله إلى المدينة عبر الباب الخلفي بكل ثبات، وكادوا أن يتعرضوا للقتل من قبل الذين كانوا في الأبراج مع المدافعين عن المدينة، ودخل الذين كانوا في الغلايين أيضاً بكل شجاعة، وعندما رآهم الرجال الآخرون من الجيش، ممن لم يكن يعرف ما هذا، بادروا بالركض في جميع أجزاء المدينة، وصعد السير رالف دي سواسون على الأسوار بكل شجاعة وإقدام ( ٢٦٩ )، ولحق صاحب تورون بصاحب بيروت من خلال الباب الخلفي، وعندما رآهم أهل المدينة وقد دخلوا بمثل هذه الأعداد، انقضوا على اللومبارد وعندما سمع لوثير فيلنغر، واستوعب ما كان يحدث وینجز، سلح نفسه، وغادر البيت

حيث كان، ومضى يركض إلى القلعة، وركض الذين كانوا بالمدينة من الأبوليين، متسابقين بين بعضهم بعضاً إلى القلعة، وقتل عدد كبير ممن كانوا هناك واعتقلوا، وقد فقدوا كل ما امتلكوه في المدينة .

١٨١ : وهكذا جرى الاستيلاء على مدينة صور، التي كانت من أحصن المدن في العالم، وانطلق الذين استولوا على المدينة، وشغلوا أنفسهم بحصار القلعة، وشددوا عليها الحصار، وضيقوا عليها الخناق، لأنه توفر عدد كبير من الرجال أثناء الحصار، وكذلك أعداد كبيرة جداً من الجنود الرجالة ( ٢٧٠ )، وتم صنع عدد من الآلات وأبراج الحجارة، التي تولت قصف القلعة، وأرهقت الذين كانوا في الداخل إلى الحدود القصوى، وتولى السير لوثير فيلنغر الدفاع عن القلعة بنشاط عظيم، ذلك أنه كان فارساً نشيطاً، وقائداً للذين كانوا في الداخل، وكان هؤلاء مجموعة جيدة من المقاتلين قادرين على الدفاع عن القلعة، لذلك لم ينل الذين كانوا في الخارج منهم شيئاً .

١٨٢ ( ٢٢٨ ) : وبينما كان الذين خارج القلعة يتولون حصار القلعة، حدث حادث عظيم لهم حسباً ستمع عنه، وبه أنجزوا مقاصدهم فيما يتعلق بالقلعة المذكورة، فقد منحهم الرب نعمة لاتقدر، وكنا قد تحدثنا من قبل عن رتشارد فيلنغر الذي غادر صور، هو وأتباعه على ظهر سفينة كبيرة، توجهت تريد أبوليا، وقد ساقته الأحوال الجوية إلى سواحل بربراري، وجنحت سفينته، وتعرضوا جميعاً إلى خطر الموت غرقاً ( ٢٧١ )، وكان هو ومن معه قد حشروا أنفسهم في القارب المرافق للسفينة مع الكثير من مقتنياتهم التي كانوا يحملونها، وكان قبل هذا قد أخذ سفينة من المسلمين، مما يدعو المسلمون قراقي Karaque ( ٢٧٢ )، ووضع فيها واحداً من أصدقائه الجيدين، واسمه بيتريدي غريل Grail الذي كان برفقته وكان رجلاً عظيماً ورائعاً في الحرب، وقد ساعده كثيراً في النزول من السفينة إلى القارب، ومن ثم في القراقي، والقيام بجمع شمله

وشمل حاجياته.

١٨٣ : ولم يتجرأوا على ركوب البحر المفتوح، لأن مركبهم كان صغيراً، مع أنه كان من السهل عليهم الذهاب إلى صقلية، لكن الأحوال الجوية كانت معاكسة لهم كثيراً، لذلك عادوا يسايرون سواحل سورية، فهذا ما أرادته الرب، وقضت إرادة ربنا بقيام الأحوال الجوية بدفعهم من شواطئ بربري حتى ميناء صور، ولم يكونوا قد علموا بالأخبار، وقد وصلوا خلال الليل، وهم مثل الذين خيل إليهم أنهم وصلوا بأنفسهم بسلام إلى بيوتهم، حيث أنهم لم يعلموا شيئاً عما حدث في مدينة صور، لأنهم لو علموا بشيء من هذا القبيل لذهبوا إلى طرابلس أو إلى أرمينيا، وقد وصلوا وأنزلوا أشرعتهم مباشرة إلى جانب السفينة الكبيرة التي اشتراها فيليب دي نوفار وجهازها لحمل السادة عندما جاءوا إلى الحصار، وقد سألوا إلى من تعود السفينة، ومن هذا عرفهم الذين كانوا على السفينة وألقوا القبض عليهم واستولوا على بضائعهم، وحملوهم إلى السفينة.

١٨٤ : ووصلت الأخبار إلى صاحب بيروت بأن رتشارد فيلنغر قد وصل إلى الميناء، وتولى هو إخبار صاحب تورون، وذهب هذان الاثنان إلى رالف دي سواسون، وقامت ضجة كبيرة في جميع أرجاء المدينة، وركض جميع الناس إلى الميناء، وأقلع كثيرون في بوارج ومراكب أخرى واتجهوا نحو «القراقي» المذكورة، وتوقف السير رالف دي سواسون وصاحب بيروت عند السلسلة وبعثا صاحب تورون وفيليب دي نوفار إلى السفينة، وقام هذان باعتقال رتشارد فيلنغر وجماعته كلها وكل ما كان معه من بضائع وثروات أخرى، وذلك بدون أية مقاومة جاءت من قبله أو من قبل أي واحد من رجاله، لأنهم لم يكن لديهم قوة، وحملوهم إلى اليايسة، حيث بعثوهم إلى مسكن السير رالف دي سواسون، وضر بهم الأطفال والنساء بالحجارة حتى كادوا أن يقتلوهم هم والذين تولوا

قيادتهم .

١٨٥ : وطلب صاحب بيروت تمكينه منهم ليضعهم في السجن، بحكم أنهم أعداء الألداء الذين دمروا قلعته في بيروت، وسبوا له أذى عظيماً، ولم يرغب السير رالف دي سواسون بتسليمهم له، وقال فيليب دي نوفار: «باسم الرب يامولاي، امنحهم له، لأن فيلنغر سوف يخاف خوفاً عظيماً منه، فيقوم الآن بتسليمك القلعة» وبناء على ذلك أعطاهم له، وبعثهم إليه، وصنع صاحب بيروت سلاسل من الحديد مثل التي كان الامبراطور قد صنعها له عندما اتخذها سجيناً عنده ورهينة في لياسول، وكان فيلنغر مرعوباً منه كثيراً ومن جماعته، ثم جاء السير جون دي إيبيلين، الذي صار فيما بعد كونت يافا، للمشاركة بحصار قلعة صور، واجتمع القادة للتشاور، ثم أخبروا السير رتشارد فيلنغر وجماعته بأنه يتوجب عليهم ترتيب استسلام القلعة، وإلا فإنهم سوف يشقونه من رقبتهم أمام الذين كانوا في القلعة .

١٨٦ : وبعث السير رتشارد فيلنغر إلى أخيه السير لوثير الذي كان قائد القلعة، وأخبره بأوضاعه، وما من أحد يعرف فعلاً بالذي أخبره إياه وبالجواب الذي حمله الرسول، لكن الذي عرف تماماً أنه ردّ على الذين كانوا بالخارج أن بإمكانهم أن يفعلوا بأخيه ما يشاءون وكذلك بابن أخيه، ذلك أنه لن يسلم القلعة، مطلقاً، ثم نصبت أعمدة ذات شعب خماسية، ووضعت فوق برج مرتفع كان قريباً من مواجهة القلعة، وجرى اقتياد السير رتشارد فيلنغر مع أخيه وابن أخيه إلى هناك، وكانوا قد غطوا أعينهم بأربطة، ووضعوا حلقات حول رقابهم، وجرى تعليقهم إلى الأعمدة بوساطة حبال ربطت حول أقدامهم، والذي كان يحتاجه الإنسان هو أن يشد نهاية الحبال، ووقتها سوف تنشُد الإنشوصات، وتنغلق وساعتها سيبقى كل واحد معلق من رقبتهم .

١٨٧ : ورآهم السير لوثير في هذه المحنة، فحزن كثيراً وأشفق عليهم،

وصرخ عالياً (٢٧٣)، وأرسل فيليب دي نوفار إلى هناك، وجرى الإعداد إلى استسلام تم بوساطته، على أساس تسليمهم للقلعة، واستلام فيليب دي نوفار لها، وقد أقسم لهم، وجعلهم يقسمون بأن يتم تحرير السير رتشارد فيلنغر وإطلاق سراحه مع جميع أصحابه، وأن ترد إليه كل الأشياء التي أخذت منه، وأن يجري استلام الأسرى سالمين جميعاً، ولسوف يتم إعطاء الذين في القلعة الأمان وأن يمكنوا من الذهاب حيث شاءوا مع مقتنياتهم، وأن يصاحبهم رجل من الإيبيليين، ويقودهم حتى مأمّنهم أينما كان هذا المأمّن حسب رغبتهم، وجرى الاتفاق في هذا العهد على أن يُدفع إلى المرتزقة كل ما يعود إليهم، وأن يعرضوا عن جميع الخسائر التي تعرضوا إليها في المدينة، عندما هربوا بشكل غير متوقع إلى القلعة .

١٨٨ : وقد مكث فيليب دي نوفار وقتاً طويلاً في القلعة للقيام بإعداد الاتفاقيات حتى أن الذين كانوا في الخارج اعتقدوا أن الذين كانوا في الداخل قد قتلوه، ولذلك تمنع السير بالين بصعوبة بالغة وضبط نفسه عن قتل السير رتشارد فيلنغر وجماعته كلها، وأمر صاحب بيروت بالين ابن فيليب دي نوفار وقال له: «إذا وجدت والدك قد قتل، اقتلهم جميعاً بيدك» .

١٨٩ : وعندما أكمل فيليب دي نوفار هذه الاتفاقيات، وعقد هذه العهود مع الذين كانوا في القلعة، خرج من القلعة، وروى أخبار جميع ما صنعه، وتمت الموافقة على ذلك كله، وجرى تنفيذه بسرور عظيم، وإرادة طيبة، ورغبة كبيرة، وزيد على ذلك عطاءات كثيرة لم يكن فيليب قد أتى على ذكرها في الميثاق، وخرج الجميع في الصباح التالي من القلعة، وأعطى فيليب دي نوفار القلعة إلى صاحب بيروت وإلى صاحب تورون الذي كان عليه القيام بحراسة الحصن، وذلك وفقاً لما جاء في المواثيق التي عقدت في عكا بين الملكة أليس وبينهما، وقاد السير جون دي إيبيلين

اللومبارد الذين كانوا هناك إلى المكان الذي رغبوا بالذهاب إليه، وهكذا اجتث عش شر اللومبارد وأطيح به ورمي جانباً، وهكذا لم يعودوا يمتلكون أية قوة في سورية أو في قبرص، وعلى هذه الصورة جرى الاستيلاء على مدينة صور وعلى القلعة في سنة ١٢٤٢ ( ١٢٤٣ ) ( ٢٧٤ ) . (

( وعاش ملك قبرص والبيت الإيبيليني بعد هذا مدة طويلة بمجد عظيم، وحكموا مملكتي قبرص والقدس، واحتفظوا بهما بأحوال جيدة، مرفوقة بشكر جميع الناس، ذلك أنهم عرفوا كيف يحافظوا على حقوق كل واحد بوساطة إخلاصهم، وحسن أخلاقهم وكرمهم نحو الجميع، لكن بما أن الحكاية طويلة جداً لأن يحاول الانسان أن يحكي كل الذي فعلوه في حياتهم، سوف أسكت مؤكداً لكم أنه لا يوجد في العالم المسيحي بيتاً أكثر شجاعة من البيت الإيبيليني) ( ٢٧٥ ) .